رواية

المورفين

ثلاثية طه الكبرى

الجزء الأول



محمد الملوكي

رواية

المورفين

ثلاثية طه الكبرى

الجزء الأول

أنا المُورفين.

وهذه قِصَّةُ طه، أحكيها لك بحَقِّ ما كان بَيني وبَينَه: عِشرونَ سَنةً في زُقاقٍ واحِدٍ، وسَطحٌ واحِدٌ جَلَسنا عليه حتَّى طَلَعَ الفَجْرُ مَرَّاتٍ لا تُعَدّ، وشُبَّاكُ زِيارةٍ في عُكَّاشةَ وَقَفتُ خَلفَه ولم أتَخلَّف. ولم يُوَكِّلْني أحَدٌ بهذه الحِكاية، غَيرَ أنَّ الذي يَشهَدُ عِشرينَ سَنةً يَصيرُ عليه أن يَقول.

ولا بأسَ أن أضَعَك في السِّياقِ من أوَّلِه: أنا رَجُلٌ يُغَنِّي. وقد سَبَقَ أن غَنَّيتُ هذه القِصَّةَ في ثَلاثِ أغانٍ على ثَلاثِ حَلَقات، فمَن سَمِعَها عَرَفَ الخُطوطَ الكِبار: فَتًى وُلِدَ في النَّعيمِ ونَشَأَ في فيلَّا لا يَعرِفُ للمُستَحيلِ مَعنًى، ثمَّ هَبَطَ في صَباحٍ واحِدٍ إلى فَقرٍ مُدقِعٍ وعَذابٍ طَويل: أربَعةُ أمتارٍ مُرَبَّعة، وأُمٌّ على آلةِ التَّصفِية، وسِجْنٌ، وبَحْرٌ، وغُربةٌ، ثمَّ عَودةٌ أعتى من الذَّهاب.

غَيرَ أنَّ الأُغنِيةَ ضَيِّقة. ثَلاثُ دَقائِقَ لا تَحمِلُ عِشرينَ سَنة، والقافِيةُ تَأخُذُ من الحِكايةِ أكثَرَ مِمَّا تُعطيها؛ فيَخرُجُ الكَلامُ مَشهَداً مُتَقَطِّعاً يُصَفِّقُ له النَّاسُ ولا يَفهَمونَه. فما قُلتُه هناك مُجمَلاً أبسُطُه لك هنا. وما قُلتُه هناك بالرَّمزِ — خَوفاً أو حَياءً أو لأنَّ الوَزنَ لم يَحمِلْه — أُسَمِّيه هنا باسمِه.

وأُقَدِّمُ إليك شَرطَينِ قبلَ أن تَدخُل:

أمَّا الأوَّلُ فأنَّكَ لن تَجِدَ في هذه الصَّفحاتِ بَطَلاً. هو أوصاني بذلك وأنا بَينَ يَدَيه شُبَّاكُ زِيارة، قال: «سَجِّلْ، وسَمِّها بما شِئتَ، بشَرطٍ واحِد: لا تَجعَلْني بَطَلاً». وقد وَفَّيتُ. ولم أجعَلْ نَفسي بَريئاً أيضاً، وهذا شَرطٌ لم يَطلُبْه مِنِّي أحَد.

وأمَّا الثَّاني فأن لا تَقرَأَها لِتَحكُم. فالحُكمُ أرخَصُ ما في هذا البابِ وأسرَعُه؛ تَقرَأُ ثَلاثَ صَفحاتٍ ثمَّ تَضَعُ الرَّجُلَ في خانةٍ وتَنصَرِف. وأنا لا أطلُبُ منك أن تُبَرِّئَه، فما أُبَرِّئُه أنا، وإنَّما أطلُبُ أن تَقرَأَ إلى آخِرِها ثمَّ تَقولَ ما شِئت.



المُورْفِين

رواية

الجُزءُ الأَوَّل

محمد الملوكي

الحسابات الرسمية للكاتب



قَبْلَ أَنْ تَقْرَأَ

هذه الحِكايةُ في ثَلاثةِ أجزاء، يَحكي كُلَّ جُزءٍ منها صَوتٌ واحِدٌ من ثَلاثةِ أصوات:

الجُزءُ الأوَّلُ: «المُورْفِين» — بلِسانِ صَديقِه، الذي شَهِدَ الحِكايةَ وغَنَّاها.

الجُزءُ الثَّاني: «نَوَالُ الطَّنْجَاوِيَّة» — بلِسانِ المَرأةِ التي عَرَفَتْه صَيفاً واحِداً وحَمَلَتْه عُمراً.

الجُزءُ الثَّالِثُ: «طه الكُوبْرَا» — بلسانه هو.

وكُلُّ جُزءٍ يَحملُ ما لا يَعرِفُه الجُزءانِ الآخَران، وفي كُلٍّ منها ما يُصَحِّحُ ما قَبْلَه؛ فثَمَّةَ وَقائعُ يَحكيها الأوَّلُ على وَجْهٍ فيَتَبَيَّنُ في الثَّاني أنَّها جَرَتْ على غَيرِه، ومَواضِعُ يَسكُتُ عنها الأوَّلانِ فلا يَفتَحُها إلَّا الثَّالث.

فلكَي تَفهَمَ الحِكايةَ لا بُدَّ من قِراءةِ الأجزاءِ الثَّلاثةِ على تَرتيبِها: من المُورفين، إلى نَوال، إلى طه. ومَن قَرَأَ واحِداً منها وَحدَه فقد قَرَأَ شَهادةً صادِقةً ناقِصة.

وهذا هو الجُزءُ الأَوَّل.

عتبة

الإنسانُ لا يعرِفُ قيمةَ الشيءِ حتَّى يَخسَرَه،

وأنا لم أعرِفْ قيمةَ صاحبي حتَّى صِرتُ أحكي عنه بصيغةِ الماضي.

أمَّا الكُوبرا فسُمٌّ يُتَّقَى، وأمَّا المُورفينُ فسُمٌّ يُشتَرَى؛

وكِلانا — واللّهُ أعلمُ بما في الصُّدور —

كان جُرحاً واحداً اختارَ لنفسِهِ اسمَين.

عَزِيزِي القَارِئ

أنا المُورفين.

وهذه قِصَّةُ طه، أحكيها لك بحَقِّ ما كان بَيني وبَينَه: عشرونَ سَنةً في زُقاق واحد، وسَطحٌ واحدٌ جَلَسنا عليه حتَّى طَلَعَ الفَجْرُ مَرَّات لا تُعَدّ، وشُبَّاكُ زِيارةٍ في عُكَّاشةَ وَقَفتُ خَلفَه ولم أتَخلَّفْ. ولم يُوَكِّلْني أحَدٌ بهذه الحِكاية، غَيرَ أنَّ الذي يَشهَدُ عِشرينَ سَنةً يَصيرُ عليه أن يَقول.

ولا بأسَ أن أضَعَك في السِّياق من أوَّله: أنا رَجُلٌ يُغَنِّي. وقد سَبَقَ أن غَنَّيتُ هذه القِصَّةَ في ثَلاث أغان على ثَلاث حَلَقات، فمَن سَمِعَها عَرَفَ الخُطوطَ الكبار: فَتًى وُلِدَ في النَّعيمِ ونَشَأَ في فيلَّا لا يَعرِفُ للمُستَحيلِ مَعنًى، ثمَّ هَبَطَ في صَباحٍ واحد إلى فَقْرٍ مُدقِعٍ وعَذابٍ طَويل: أربَعةُ أمتارٍ مُربَّعة، وأُمٌّ على آلةِ التَّصفية، وسِجْنٌ، وبَحْرٌ، وغُربَةٌ، ثمَّ عَودةٌ أعتى من الذَّهاب.

غَيرَ أنَّ الأُغنيةَ ضَيِّقة. ثَلاثُ دَقائقَ لا تَحملُ عشرينَ سَنة، والقافيةُ تَأخُذُ من الحِكاية أكثَرَ ممَّا تُعطيها؛ فيَخرُجُ الكَلامُ مَشهَداً مُتَقَطِّعاً يُصَفِّقُ له النَّاسُ ولا يَفهَمونَه. فما قُلتُه هناك مُجمَلاً أبسُطُه لك هنا. وما قُلتُه هناك بالرَّمزِ — خَوفاً أو حَياءً أو لأنَّ الوَزنَ لم يَحمِلْه — أُسَمِّيه هنا باسمِه.

وأُقَدِّمُ إليك شَرطَينِ قبلَ أن تَدخُل:

أمَّا الأوَّلُ فأنَّكَ لن تَجدَ في هذه الصَّفحاتِ بَطَلاً. هو أوصاني بذلك وأنا بَينَ يَدَيه شُبَّاكُ زِيارة، قال: «سَجِّلْ، وسَمِّها بما شِئتَ، بشَرطٍ واحِد: لا تَجعَلْني بَطَلاً». وقد وَفَّيتُ. ولم أجعَلْ نَفسي بَريئاً أيضاً، وهذا شَرطٌ لم يَطلُبْه منِّي أحَد.

وأمَّا الثَّاني فأن لا تَقرَأَها لِتَحكُم. فالحُكْمُ أرخَصُ ما في هذا البابِ وأسرَعُه؛ تَقرَأُ ثَلاثَ صَفحاتٍ ثمَّ تَضَعُ الرَّجُلَ في خانةٍ وتَنصَرِف. وأنا لا أطلُبُ منك أن تُبَرِّئَه، فما أُبَرِّئُه أنا، وإنَّما أطلُبُ أن تَقرَأَ إلى آخِرِها ثمَّ تَقولَ ما شِئت

الفَصْلُ الأَوَّلُ

لَيْلَةٌ فِي إِكْسِلْسْيُور

كانت الدَّارُ البيضاءُ في تلك اللَّيلة تَغتسلُ بمطرٍ لا يُطهِّر. مطرٌ ثقيلٌ أسوَدُ، يسقُطُ على الإسفلتِ فيرتَدُّ عنه زيتاً، ويَجري في المزاريبِ حاملاً معه ما تَرفُضُ المدينةُ أن تَعترِفَ به: أعقابَ السَّجائرِ، وتذاكرَ الحافلات، وأوراقَ اليانصيبِ التي لم تَربَحْ، ووُعودَ الرِّجالِ الذين قالوا سنعودُ ولم يَعودوا.

كنتُ جالساً في الزَّاوية القُصوى من بَهْوِ فُندق إكسلسيور، أُراقبُ البابَ الدَّوَّارَ كما يُراقبُ الصَّيَّادُ ثُقْبَ الجُحْر. وفُندقُ إكسلسيور، لمن لا يَعرِفُه، هَيكلٌ عظميٌّ لزمنٍ مضى؛ بَناه المُستعمِرُ في مَطلعِ القرنِ ليكونَ واجهةً لمدينة كان يَحلُمُ بأن تُشبهَ مَرسيليا، فصارَ اليومَ عَجوزاً أنيقاً أفلَسَ ونَسيَ أن يُبدِّلَ بَدلتَه. أعمدةٌ من رُخامٍ تَقشَّرَ، وثُريَّا فَقَدَتْ ثُلثَ مَصابيحِها فصارَ ضَوؤها أعوَرَ، وسَجَّادٌ أحمرُ مَشَى عليه مِنَ النَّاسِ ما لا يُحصَى حتَّى انكَشَفَ خَيطُه كما يَنكَشِفُ عَصَبُ اليَدِ في الكَفِّ الهَزيل.

كان قد قال لي في الهاتف، قَبلَ ثلاثة أيَّام، بصوتٍ هادئٍ هُدوءاً أرَّقَني: «في إكسلسيور. يومَ الخميس. العاشرةَ ليلاً. وجِئْني بورَقٍ وقَلَم، ولا تَجِئْني بكاميرا».

سألتُه: ولِمَ إكسلسيور يا طه؟ قال: «لأنَّه الفُندقُ الوحيدُ في هذه المدينةِ الذي يُشبهُني: من بَرَّةٍ ذَهَبٌ، ومِن داخلٍ غُبار».

* * *

في العاشرة جاءَ النَّادلُ، فطَلبتُ قَهوةً سَوداء. في الحاديةَ عشْرةَ طَلبتُ ثانية، وأضَفتُ قنِّينةَ ماء لأُسكتَ المَعدة. في الثَّانيةَ عشْرةَ لم أَطلُبْ شيئاً، فصارَ النَّادلُ يَنظُرُ إليَّ تلك النَّظرةَ التي يَعرِفُها كلُّ من جَلَسَ وَحْدَه في مَقهًى طَويلاً: نَظرةٌ نِصفُها شَفَقةٌ ونِصفُها حِساب.

ومَرَّتْ على الباب الدَّوَّار تلك اللَّيلةَ أشياءُ كثيرةٌ غيرُ طه. مَرَّتْ سائحةٌ عجوزٌ تَجُرُّ حَقيبةً مُعَطَّلةَ العَجلة. ومَرَّ رجُلان في بَدلتَين تَتحدَّثان عن صَفقة أراضٍ بصوتٍ عالٍ كمن يُريدُ أن يُسمِعَ القاعةَ أنَّه يَملكُ شيئاً. ومَرَّ شابٌّ يَبيعُ المَناديلَ الوَرَقيَّةَ فأدخَلَ رأسَه ثمَّ سَحَبَه قبلَ أن يَصرُخَ فيه أحد. ومَرَّ البَرْدُ.

وفي الواحدة سَمعتُ دَرَّاجةً نَاريَّةً تَصرُخُ في الشَّارعِ صَرخةً واحدةً طَويلةً ثمَّ تَخفُت. وعَرَفتُ ذلك الصَّوت. أقسِمُ أنِّي عَرَفتُه، فقد سَمعتُه مئاتِ المَرَّاتِ وهو يَنزِلُ مُنحَدَرَ الدَّرْبِ في الفَجْر. فهَمَمتُ أن أقومَ، فنَزَلَ على قَلبي شيءٌ ثَقيلٌ أقعَدَني.

ثمَّ مَرَّتْ سَيَّارةُ شُرطةٍ ببُطءٍ شَديدٍ، تَسبَحُ في الماءِ ولا تَصفُر، كمن يَبحَثُ عن عُنوانٍ لا عن مُجرِم.

ولم يَأتِ طه.

* * *

الانتظارُ، أيُّها القارئُ، مَدرسةٌ قاسيةٌ لا تُعطيك شَهادةً في آخرِها. وأقسى ما فيه أنَّه يُحوِّلُ الزَّمَنَ إلى مادَّةٍ تُلمَس؛ تَجلسُ وتَراه يَتكدَّسُ أمامَك على المنضَدة كالرَّماد، فتَعرِفُ لأوَّلِ مَرَّةٍ أنَّ العُمرَ ليس خَطًّا تَسيرُ عليه، وإنَّما كُومةٌ تَسقُطُ فَوقَك شيئاً فشَيئاً حتَّى تُغَطِّيَك.

وقد كنتُ في تلك السَّاعاتِ الأربعِ أُفَكِّرُ في سؤالٍ واحد: ما الذي يَجعَلُ ولَدَين وُلِدا في مدينةٍ واحدة، وشَربا ماءً واحداً، وتَنفَّسا دُخانَ المَصافي نَفْسَه، يَفتَرِقان افتراقاً تامًّاً؛ فيَصيرُ أحدُهما سُمًّاً يَخافُه النَّاسُ، ويَصيرُ الآخَرُ مُخَدِّراً يَشتَريه النَّاسُ؟ ألأنَّ أحدَهما وُلِدَ في فيلَّا والآخَرُ في غُرفةٍ

بأربعة أمتارٍ مُرَبَّعة؟ هذا تَفسيرٌ مُريحٌ، ومن أجلِ ذلك أشُكُّ فيه؛ فإنَّ التَّفسيراتَ المُريحةَ هي الأكاذيبُ التي يَرتَضيها العاجِزون.

الحقُّ أنَّنا كُنَّا كلَينا جُرحاً. غيرَ أنَّ الجُرحَ إذا لم يَجدْ من يُسَمِّيه، سَمَّى نَفسَه؛ فسَمَّى نَفسَه عِنْدَه: الكُوبرا، وسَمَّى نَفسَه عندي: المُورفين. ومَن تَأمَّلَ الاسمَين عَرَفَ أنَّهما مهنتان لا هَوِيَّتان: هذا يَحقِنُ السُّمَّ ليَحمِيَ نَفسَه، وهذا يَحقِنُ البَنْجَ لِيَنْسَى نَفسَه. وكِلانا كان يَهرُبُ من الوَجَعِ بالوَجَع.

في الثَّالثة وأربعِ دَقائقَ رَنَّ هاتفي رَنَّةً واحدة. رَنَّةً واحدةً فقط، كأنَّ يَداً ضَغَطَتْ ثمَّ نَدِمَتْ. ونَظَرتُ إلى الشَّاشةِ فرأيتُ رَقَماً لا أعرِفُه، أوَّلُه ليس من هذه المدينة.

ولم أُجبْ. ولن أُحَدِّثَك الآنَ عن سَبَبِ ذلك، فإنَّ لكلِّ حكايةٍ بَاباً لا يُفتَحُ إلَّا في آخِرِها، وهذه الرَّنَّةُ هي بابُ حكايتي؛ سأعودُ إليها في الصَّفحةِ الأخيرة، وأُقسِمُ أنِّي سأعودُ.

أمَّا الآن، فقد دَفَعتُ ثَمَنَ القَهوةِ وأخرَجتُ الوَرَقَ والقَلَمَ الذي طَلَبَ، وجَلَستُ في بَهْوِ فُندقٍ خَرِبٍ أحكي عن رَجُلٍ لم يَحضُر. فإنَّ مَن غابَ عن مَوعِدِ حكايته فَقَدَ حَقَّ رِوايتِها، وصارَتِ الحكايةُ لِمَن حَضَر.

ولْأبدَأْ من حَيثُ بَدأَ كلُّ شيء: من فيلَّا بَيضاءَ في حَيٍّ كاليفورنيا، ومن بابٍ طُرِقَ في صَباحٍ صافٍ ثلاثَ طَرَقاتٍ رَسْمِيَّة.

الفَصْلُ الثَّانِي

فِيلَّا فِي كَالِيفُورْنِيا

وُلِدَ طه في سَنة اثنتَين وثَمانين، في عامٍ كانت فيه هذه المدينةُ تَتعلَّمُ كيف تَصيرُ غَنيَّةً بسُرعة. وكان أبوه رجُلاً اسمُه شَريف، يَستوردُ ويُصَدِّرُ؛ وما كان أحدٌ في الحَيِّ يَعرِفُ بالضَّبط ماذا يَستوردُ ولا إلى أين يُصَدِّر، وإنَّما كانوا يَعرِفونَ أنَّه يَخرُجُ في السَّابعة ويَعودُ في العاشِرة، وأنَّ سَيَّارتَه تُبدَّلُ كلَّ سَنَتَين، وأنَّ يَدَه ثَقيلةٌ في الإحسانِ إذا سَأله سائل.

والفيلَّا، هناك في كاليفورنيا، لم تكن قَصْراً. كانت بَيتاً أبيَضَ من طابَقَين، بسَطحٍ يُشرِفُ على أشجارِ أوكاليبتوس، وحَوضٍ صَغيرٍ للسِّباحة يُملَأُ في يونيو ويُفرَغُ في أكتوبر؛ فيَبقى في الشِّتاءِ فارِغاً تَتجمَّعُ في قاعِه الأوراقُ وماءُ المَطَر، فيُشبِهُ فَماً مَفتوحاً لا يَقولُ شيئاً. وقد كنتُ أراه من بَعيدٍ ولا أدخُلُه، فإنَّ بَيني وبينَه في تلك السِّنينَ مَسافةً لا تُقاسُ بالكيلومترات.

كان شَريفٌ يُحِبُّ ابنَه حُبّاً جافياً فيه شيءٌ من العَسكَر. لم يَكُنْ يُقَبِّلُه، وإنَّما كان يَضرِبُ على كَتِفه ضَربةً واحدةً ويَقول: «الرِّجالُ لا تَعرِفُ للمُستَحيلِ مَعنًى». هذه الجُملةُ، هذه الجُملةُ بالذَّات، هي التي قَتَلَتْ طه؛ وقد تَأخَّرتُ عِشرينَ سَنةً لأفهَمَ ذلك. فإنَّ الرَّجُلَ الذي يُربِّي ابنَه على أن لا مُستَحيلَ، يُربِّيه على أن لا حُدود؛ ومن لا حُدودَ عِندَه لا يَعرِفُ أين يَتوقَّف، ومن لا يَعرِفُ أين يَتوقَّفُ يَمشي حتَّى يَسقُط. عَلَّمَه كُلَّ شيءٍ إلَّا الاحتِمال. أعطاه كُلَّ شيءٍ إلَّا العَضَلةَ التي يُقاوِمُ بها الجُوع.

* * *

وكانت صِباه مَوكِباً. كان يَذهَبُ إلى الثَّانَويَّة وفي جَيبِه من المالِ ما يَكفي أُسرةً أُسبوعاً. يَنزِلُ من سَيَّارةٍ يَسوقُها برُخصةٍ مُستَعارةٍ وهو في السَّادسةَ عشْرة، ويَصعَدُ الدَّرَجَ فتَلتَفُّ حَولَه البَناتُ كما يَلتَفُّ الفَراشُ على المِصباح. والجُمعةُ مَساءً سينما ميغاراما، والسَّبتُ حَفلةٌ في بَيتِ أهلُه

مُسافرون، وقَناني الجعَة الخَضراء مُصطَفّةٌ على حافَة الشُّرفة كجُنودٍ خاسرين، وحَبّةٌ بَيضاءُ تَنتَقِلُ من كَفٍّ إلى كَفٍّ في اللَّيلِ كما تَنتَقِلُ كَذبةٌ صَغيرةٌ في مَجلسٍ كبير.

وقد قال لي مَرَّةً، بَعدَ سنين، وهو يَضحَكُ ضحكةً بلا أسنانٍ فَرَح: «كُنّا نَظُنُّ أنّنا نَفتَحُ الدُّنيا. والحَقُّ أنّنا كُنّا نَأكُلُ من رَصيدٍ لم نُودِعْ فيه دِرهَماً واحداً».

ها هنا، أيُّها القارئ، مَوضِعُ التَّأمُّل: إنَّ التَّرَفَ أخْطَرُ من الفَقْرِ على النَّفْسِ الفَتِيَّة. فالفَقرُ يُعلِّمُك المُقاوَمةَ وإن كَسَرَ ظَهْرَك، والتَّرَفُ يُنَزِّعُ عنك المُقاوَمةَ ويَترُكُك سَليمَ الظَّهْر. والذي يَسقُطُ من عُلُوٍّ وقد وُلِدَ في العُلُوِّ لا يَعرِفُ كيف يَتّقي السُّقوطَ بذراعه، فيَنزِلُ على وَجْهِه. أمَّا ابنُ الدَّرْبِ فإنَّه يَسقُطُ كلَّ يومٍ قَليلاً، فيَتعلَّمُ السُّقوطَ كما يَتعلَّمُ المَشْي.

* * *

وأمَّا أُمُّه، فإنّي أُحِبُّ أن أقِفَ عِندَها قَليلاً، لأنَّها الشَّخصُ الوَحيدُ في هذه الحِكايةِ الذي لم يَطلُبْ شَيئاً لِنَفسِه من أوَّلِها إلى آخِرِها.

كانتْ من أُسرةٍ مُتَوَسِّطةٍ في الجَديدة، تَزَوَّجَتْ شَريفاً وهي في العِشرين، وكانتْ تَقرَأُ وتَكتُبُ وتَخيطُ خِياطةً حَسَنة. ولم تَكُنْ من نِساءِ كاليفورنيا؛ فما تَعلَّمَتْ لَعِبَ الوَرَقِ في الأصائِل، ولا دَخَلَتْ في حِسابِ من تَزورُ ومن لا تَزور، وإنَّما كانتْ تَجلِسُ في المَطبَخِ تُعِدُّ بيَدِها ما تُقَدِّمُه لِضُيوفِ زَوجِها وهي تَملِكُ خادِمَتَين. وقد سألتُها مَرَّةً في السِّنِينَ العِجافِ: لِمَ كُنتِ تَفعَلينَ ذلك يا خالَة؟ فقالتْ: «حتَّى لا تَنسى اليَدُ».

واللهِ لقد قالتْ في أربَعِ كَلِماتٍ ما لا أقولُه أنا في كِتاب. فإنَّ النِّعمةَ تُنسي اليَدَ عَمَلَها، فإذا زالَتِ النِّعمةُ وَجَدَ صاحِبُها يَداً لا تَعرِفُ أن تَصنَعَ شَيئاً. وقد زالَتِ النِّعمةُ عن ذلك البَيتِ بَعدَ ذلك بسَنَةٍ واحِدة، فكانتْ هي الوَحيدةَ فيهم التي لم تَتَغيَّرْ؛ لأنَّها لم تَكُنْ قد سَكَنَتْ في الفيلَّا سَكَناً تامّاً، وإنَّما كانتْ نازِلةً فيها كمن يَنزِلُ في فُندُق.

ومن هنا، أيُّها القارئ، تَفهَمُ لماذا احتَمَلَتْ هي أربَعةَ الأمتارِ المُربَّعةَ سَبعَ سَنَواتٍ ومَرَضاً في الكُلْيَتَين، وانكَسَرَ زَوجُها في سَبعةِ أشهُر. فالنَّاسُ لا يُقاسونَ بما يَملِكون، وإنَّما يُقاسونَ بالمَسافةِ بَينَهم وبينَ ما يَملِكون.

بَدأتِ الحِكايةُ تَتصدَّعُ في شِتاءِ سَنةِ تِسعٍ وتِسعين. جاءَ الصَّدعُ من حَيثُ لا يَنظُرُ أحَد: من وَرَقةٍ.

كان لشَريفٍ شَريكٌ في صَفقةِ استْيرادٍ كَبيرة؛ وَقَّعَ له كَفالةً بخَطِّ يَده، ووَضَعَ الفيلَّا رَهْناً في البَنْك، وقال لزَوجته وهو يَطوي العَقْدَ: «هذه آخرُ مُجازَفةٍ في عُمري، وبَعدَها نَرتاح». وما أكثَرَ الرِّجالَ الذين قالوا هذه الجُملةَ بالذَّاتِ قَبلَ أن تَنفَتِحَ الأرضُ تَحتَ أقدامهم؛ فإنَّ المُجازَفةَ الأخيرةَ في عُمرِ الرَّجُلِ هي التي تُنهي عُمرَه حَقّاً، ولو عاشَ بَعدَها ثَلاثينَ سَنة.

سافَرَ الشَّريكُ ولم يَعُد. ولم يُعرَفْ إن كان قد هَرَبَ بالمالِ أو ضاعَ المالُ قَبلَ أن يَهرُب. والفَرْقُ بينَ الأمرَينِ عَظيمٌ في المَحكَمة، مُنعَدِمٌ في البَيت.

وجاءَت الإشعاراتُ الأولى في مَغلَّفاتٍ بَيضاءَ مُقَوَّاة، فكان شَريفٌ يَفتَحُها في المَطبَخِ ويُمَزِّقُها ويَرميها في سَلَّةِ المُهمَلات. ثمَّ صارَ يَفتَحُها ولا يُمَزِّقُها. ثمَّ صارَ لا يَفتَحُها. وتَراكَمَتْ على الطَّاولةِ عِندَ البابِ كَومةٌ بَيضاءُ كالثَّلجِ، كان كلُّ من يَدخُلُ البَيتَ يُشاهِدُها ويَصمُت.

بيعَتِ السَّيَّارةُ الأولى في مارس، والثَّانيةُ في يونيو. ونَزَلَ من حِسابِ البَيتِ من أدَواتِ العَيشِ شَيءٌ فشَيء، كما يَنزِلُ الماءُ من حَوضِ السِّباحةِ في أكتوبر؛ لا تَراه يَنزِلُ، وإنَّما تَراه قد نَزَل. وصارَتْ أُمُّه تُطفِئُ الأضواءَ في الغُرَفِ الفارِغة، وهو يَسمَعُ طَقطَقةَ المِفتاحِ في اللَّيلِ ولا يَفهَمُ لماذا يُقبِضُ قَلبَه ذلك الصَّوت.

* * *

وفي صَباحِ الثَّاني والعشرينَ من أكتوبرَ سَنةَ ألفَين، وكان يَوماً صافياً لا يُنبئُ بشَيء، طُرِقَ البابُ ثَلاثَ طَرَقات. ثَلاثاً. لا أربَعاً ولا اثنَتَين. وهذه مَعرِفةٌ لا يَملِكُها إلَّا من سَمِعَها: إنَّ طَرْقَ الدَّولةِ على البابِ له إيقاعٌ لا يُشبِهُ إيقاعَ الجار.

دَخَلَ مُفَوَّضٌ قَضائيٌّ في معطَفٍ رَماديٍّ، في يَدِه مَلَفٌ أزرَقُ ومَعه رَجُلان ودَفتَرٌ. ولم يَكُنْ في وَجْهِه شَرٌّ، وهذا أسوأُ ما فيه؛ إنَّما كان في وَجْهِه ذلك الحِيادُ المُطلَقُ الذي يَلبَسُه الرَّجُلُ الذي يَفعَلُ بك ما لا يَخُصُّه. قَرَأَ أسماءً وأرقاماً وتَواريخ، وصارَ يَمُرُّ على الأشياءِ ويَكتُب: كُرسيٌّ، وكُرسيٌّ، وخِزانةٌ من خَشَبٍ أحمر، وتِلفازٌ، وثُريَّا.

ووَقَفَتْ أُمُّه في المَمَرِّ وكَفُّها على خَشَبِ البابِ، لا تَبكي ولا تَتكلَّم، وإنَّما تُسنِدُ البابَ بكَفِّها كأنَّها تُسنِدُ البَيتَ كُلَّه بكَفٍّ واحدة. وطه، وهو ابنُ ثَمانيَ عشْرةَ سَنة، واقِفٌ على الدَّرَجِ في سِرْوالٍ قَصيرٍ وقَدَمَينِ حافِيَتَين، يَنظُرُ إلى أبيه.

ونَظَرَ إليه أبوه مَرَّةً واحِدة. مَرَّةً واحدةً فقط. ولم يَقُلْ له: الرِّجالُ لا تَعرِفُ للمُستَحيلِ مَعنًى. قال له، بصوتٍ لم يَسمَعْه منه قَبْلَ ذلك اليَومِ ولا بَعدَه: «اجمَعْ ثِيابَك يا وَلَدي».

في تلك اللَّحظة، كما حَدَّثَني هو بَعدَ سَنَوات في زَنزانةٍ ذاتِ شُرفةٍ رَقَمُها ثلاثةٌ وثلاثون، مات شيءٌ في قَلبِه لم يُدفَنْ قَطّ. ليس البَيتَ، فالبَيتُ حَجَرٌ. ولا المالَ، فالمالُ يَجيءُ ويَذهَب. وإنَّما مات الأبُ في عَينِه؛ ومَن مات أبوه في عَينِه وهو حَيٌّ يَمشي أمامَه، فقد وَرِثَ وهو ابنُ ثَمانيَ عشْرةَ سَنةً ميراثاً لا يُقَسَّمُ ولا يُباع.

وفي المَساءِ حَمَلوا ثلاثَ حَقائبَ وصَعِدوا الحافِلةَ رَقَم أربعةٍ وخَمسين.

الفَصْلُ الثَّالِثُ

أَرْبَعَةُ أَمْتَارٍ مُرَبَّعَة

الدَّرْبُ ليس مَكاناً، وإنَّما هو قانون.

في حَيِّ مولاي رشيد، حيثُ أُلقِيَتْ بهم الحافلةُ ذاتَ مَساءٍ من أكتوبر، كانت الأزقَّةُ ضَيِّقةً حتَّى إنَّ الجارَ يَسمَعُ سُعالَ جارِه فيَعرِفُ أمُدَخِّنٌ هو أم مَريض، وكانت الأسلاكُ الكَهرَبائيَّةُ مُتَشابكةً في السَّماء كشَبَكةِ عَنكَبوتٍ نَسَجَها مَجنون، وكان في كلِّ زُقاقٍ دُكَّانٌ ومَسجِدٌ ومَقهًى وثَلاثةُ شَبابٍ واقِفينَ عندَ الزَّاوِيةِ لا يَفعَلونَ شَيئاً إلَّا أنَّهم يَرَوْنَ كُلَّ شيء.

استأجَرَ أبوه غُرفةً في طابَقٍ ثالثٍ بلا مصعَد. غُرفةً واحِدةً ومَطبَخاً هو في الحَقيقةِ رُكْنٌ، ومِرحاضاً مُشتَرَكاً في الطَّابَق. قاسَها طه مَرَّةً بقَدَمِه، فإذا هي أربَعةُ أمتارٍ مُرَبَّعة. أربَعةُ أمتار. وفيها طاوِلةٌ، ومَرْتَبةٌ على الأرض، ومِذياعٌ قَديمٌ شَعْرُ هَوائِيِّه مَلفوفٌ بورَقٍ فِضِّيٍّ لِيَصطادَ المَوجة، ومُلصَقٌ لِمُطرِبةٍ شَرقِيَّةٍ باهِتُ الألوانِ أبقاه السَّاكِنُ الذي قَبْلَهم على الحائِطِ كأنَّه يُوصي من بَعدِه بشيءٍ من الجَمال.

وفي الشَّهرِ الثَّالِثِ مَرِضَتْ أُمُّه مَرَضاً خَبيثاً في الكُلْيَتَين.

* * *

مَن لم يُجالِسْ مَريضاً مُزمِناً في بَيتٍ فَقيرٍ لا يَفهَمُ معنى الوَقْت. فالوَقتُ هناك يَنقَسِمُ قِسمَين لا ثالِثَ لهما: يَومٌ فيه تَصفِيةٌ ويَومٌ لا تَصفِيةَ فيه. يُحمَلُ الجَسَدُ إلى المُستَشفى ثَلاثَ مَرَّاتٍ في الأسبوع، فتَخرُجُ الدِّماءُ من الذِّراعِ وتَعودُ إليها نَقِيَّةً مُتعِبَةً، وتَعودُ هي إلى الغُرفةِ صَفراءَ تَرتَجِفُ، فتَنامُ ساعَتَين ثُمَّ تَستَيقِظُ لتَسألَ: أكَلْتَ يا وَلَدي؟

وكان أبوه قد صارَ ظِلَّاً. يَخرُجُ في الصَّباحِ بمَلَفٍّ تَحتَ إبْطِه إلى المَحاكِمِ والمَكاتِب، ويَعودُ مَساءً بالمَلَفِّ نَفسِه ولا شَيءَ فيه قد تَغيَّر، ثُمَّ يَجلِسُ على حافَةِ المَرْتَبةِ ويَحُكُّ ظَهْرَ كَفِّه حتَّى

يَحمَرّ. وكان تَقاعُدُه الصَّغيرُ يَدخُلُ في أوَّلِ الشَّهرِ فيَخرُجُ في اليَومِ الخامس. وكانتْ أُختُه في ألمانيا تُرسِلُ حَوالةً كلَّ شَهرٍ أو كلَّ شَهرَين، فتَصيرُ الأيَّامُ التي تَسبقُ الحَوالةَ أطولَ من الأيَّامِ التي تَليها؛ وهذا، وحدَه، تَعريفٌ كافٍ للفَقْر: أن يَصيرَ لِطولِ اليَومِ عِندَك عِلاقةٌ بالتَّاريخ.

فبَقِيَ طه وَحدَه في المُعادَلة. هو الذي كان يُنفِقُ في اللَّيلة ما يُقيمُ بَيتاً، صارَ هو الذي يُدَبِّرُ. وأوَّلُ ما تَعلَّمَه أنَّ الكَرامةَ ليستْ شَيئاً تَملِكُه، وإنَّما هي شَيءٌ تَستَطيعُ شِراءَه إذا كان مَعَك ثَمَنُه.

* * *

بَدأَ بالحَديد. يَجمَعُه من الأوراشِ ومن الهَدْمِ ويَبيعُه بالوَزْن. ثمَّ بقِطَعِ الدَّرَّاجاتِ المُستَعمَلة، يَفُكُّها ويُركِّبُها ويَبيعُها. ثمَّ، في يَومٍ لم يَنتَبهْ إليه أحَدٌ ولم يُدَوَّنْ في دَفتَر، أضافَ إلى الحَديدِ والقِطَعِ شَيئاً آخَرَ يُلَفُّ في وَرَقٍ ويُخَبَّأُ في الجَوْرَب.

وما كان الانتقالُ قَفْزةً، وإنَّما كان دَرَجةً واحدةً في سُلَّمٍ طَويلٍ يَنزِلُ به الإنسانُ وهو يَحسبُ أنَّه ما زال في الطَّابَقِ نَفسه. هكذا يَصنَعُ الشَّرُّ بالنَّاس: لا يَدعوهم إلى الهاوِيَة دَفعةً، إنَّما يَدعوهم إلى دَرَجةٍ واحِدةٍ، ويَقولُ لهم ارجِعوا متى شِئتُم. ثمَّ يُخفي السُّلَّمَ من وَرائِهم.

* * *

كان أطفالُ الدَّرْب في الشَّهرِ الأوَّلِ يُنادونَه «بُتي سْويس»، تَشبيهاً بتلك العُلْبةِ البَيضاءِ الصَّغيرةِ من الجُبْنِ الحُلْوِ الذي يَأكُلُه أولادُ الأغنياءِ في الاستِراحة؛ يَقولونَها ويَضحَكون، ويُشيرونَ إلى بَشَرَتِه التي لم تَرَ شَمْسَ الزُّقاق، وإلى حِذائِه الذي كان غالياً فصارَ مُهتَرِئاً غالياً، وإلى لُغَتِه التي فيها كَلِماتٌ فَرَنسيَّةٌ لا تَنفَعُ في هذا الشَّارِع.

وتَحمَّلَ الاسمَ ثَلاثةَ أشهُرٍ. ثَلاثةُ أشهُرٍ وهو يَنزِلُ الدَّرَجَ كلَّ صَباحٍ ويَسمَعُ الكَلِمةَ تَتبَعُه كذُبابةٍ لا تُقتَل.

ثمَّ جاءَ المَساءُ الذي وَقَفَ له فيه واحدٌ من كبارِ الزُّقاقِ عندَ الدُّكَّانِ وأخَذَ من يَدِه قِنِّينةَ الزَّيتِ التي اشتَراها لأُمِّه، ورفَعَها عالياً وقال: «قُلْ لي بُتي سْويس، وخُذْها».

ما حَدَثَ بَعدَ ذلك حَدَثَ في أقَلَّ من عَشْرِ ثَوانٍ، ولم يَرَ منه الشَّارِعُ إلَّا آخرَه: جسمٌ طارَ إلى حافَةِ الرَّصيف، وزَيتٌ انسكَبَ أصفَرَ على الإسفلتِ وامتزَجَ بالتُّراب، ووَلَدٌ أبيَضُ نَحيفٌ واقفٌ وَسْطَ الزُّقاقِ وصَدْرُه يَعلو ويَهبِط، وفي عَينِه شَيءٌ جَديدٌ أفزَعَ الكِبارَ قَبْلَ الصِّغار. لم يَكُنْ غَضَباً، فالغَضَبُ يَمُرّ. كان قَراراً.

وقال في تلك اللَّيلةِ أحدُهم، وهو يَلُفُّ سيجارةً عِندَ الزَّاوية: «هذا ما كان بُتي سْويس قَطّ. هذا كُوبرا».

وفي الصَّباحِ نادوه بالاسمِ الجَديد. ولم يُصَحِّحْ لهم. وهكذا يُولَدُ الرِّجالُ في الدَّرْب: لا بشَهادةِ ميلادٍ، وإنَّما بشَهادةِ شُهود.

* * *

وها هنا يَجِبُ أن أقِفَ لِأقولَ شَيئاً عن الأسماء.

إنَّ الاسمَ الذي يُسَمِّيك به أبوك أُمنيَةٌ، والاسمَ الذي يُسَمِّيك به النَّاسُ شَهادة. سَمَّاه أبوه طه، باسمِ سورةٍ في كتابِ الله، أُمنيَةً أن يَكونَ هادياً مَهديّاً. وسَمَّاه الدَّرْبُ الكُوبرا، شَهادةً بأنَّه صارَ حَيواناً لا يُؤذي إلَّا إذا دَنَوْتَ منه، ولا يُعرَفُ متى تَدنو منه. والفَرْقُ بينَ الأُمنيَةِ والشَّهادةِ هو كُلُّ ما جَرَى في هذه الرِّوايةِ من أحداث.

ثمَّ إنَّ الأفْعى، أيُّها القارئُ، لا تَصنَعُ سُمَّها لِتَقتُلَ به؛ إنَّما تَصنَعُه لأنَّها عَزْلاءُ من كلِّ شَيءٍ آخَر: لا مِخلَبَ ولا حافِرَ ولا قَرْن. السُّمُّ سِلاحُ الضَّعيفِ الذي لا يَملِكُ جَسَداً يُدافِعُ به، والقَسْوَةُ غِلافٌ يَصنَعُه القَلْبُ الرَّقيقُ حولَ نَفسه حينَ يَفقِدُ البابَ والجِدار. وما رأيتُ في عُمري قاسياً إلَّا وَجَدتُ تَحتَ قَسْوَتِه طِفلاً خائفاً لم يَجِدْ من يُطَمْئِنُه في الوَقْتِ المُناسب.

* * *

أمَّا أنا، فأنا من هناك.

وُلِدتُ في ذلك الزُّقاقِ ولم أنزِلْ إليه. لم أخسَرْ فيلًّا ولا سَيَّارةً ولا أباً كان يَقولُ لي إنَّ المُستَحيلَ غيرُ مَوجود، فإنَّ أبي كان يَقولُ لي عَكْسَ ذلك تَماماً كلَّ صَباحٍ وهو يَلبَسُ بَذلةَ العَمَلِ الزَّرقاء. ومن أجلِ ذلك لم أسقُطْ سُقوطَ طه؛ فالذي يَمشي على الأرضِ لا يَخشى الوُقوعَ منها.

وقد تَعارَفْنا على جُدارٍ. كُنتُ أكتُبُ عليه كَلاماً بالفَحْمِ، وكان يَقِفُ وَرائي يَقرَأ. فقالَ لي: «ما هذا؟» قُلتُ: كَلام. قال: «الكَلامُ لا يُشبِعُ». قُلتُ: ولا السُّمُّ يُشبِع.

فضَحِكَ ضحكةً عاليةً، وكانتْ أوَّلَ ضحكةٍ أسمَعُها منه، ومَدَّ يَدَه وقال اسماً. وأنا قُلتُ اسمي. ثمَّ صِرنا، على مَدى عِشرينَ سَنة، وَجهَينِ لعُملةٍ واحِدةٍ أنفَقَتْها هذه المدينةُ ولم تَحسُبْ ثَمَنَها.

الفَصْلُ الرَّابِعُ

صَيْفٌ وَاحِدٌ فِي أَكَادِير

في حَياة كلِّ مَنكوب صَيفٌ واحدٌ يَظَلُّ يَعودُ إليه ما بَقِيَ له عَقْل. صَيفٌ لا يَخدمُ شَيئاً في الحكاية، ولا يُفَسِّرُ ما قَبْلَه ولا يُهَيِّئُ لما بَعدَه، وإنَّما يَبقى هناك كنافذة في جدارٍ مَسدود؛ ومن غَرائبِ النَّفْسِ أنَّ الإنسانَ يَستَطيعُ أن يَعيشَ عُمرَه كُلَّه على ذِكْرِ ثَلاثة أشهُرٍ لم يَملكْ فيها شَيئاً.

كان صَيْفَ سَنة ألفَين؛ آخرَ صَيف في عُمْرِ الفيلَّا. وبينَه وبينَ الطَّرَقات الثَّلاث على باب كاليفورنيا ثَمانيةُ أسابيع، ولم يَكُنْ يَعلَمُ ذلك، ولا أحَدٌ في ذلك البَيت كان يَعلَم. وهذا، واللهِ، أقسى ما في الحكايةِ كُلِّها: أنَّ الإنسانَ يَضحَكُ أعلى ضَحِكةٍ في عُمرِه وهو واقِفٌ على حافَةِ ما سَيَسقُطُ به.

قال له أبوه في أوَّلِ يوليوز، وهو يَرمي إليه بمفتاحِ السَّيَّارة على طاولةِ الفُطور: «انزلْ إلى أغادير، وخُذْ معك من شئت». ثمَّ أضافَ تلك الجُملةَ التي كان يَقولُها في كلِّ مُناسَبةٍ ولا يَدري ما تَصنَع: «الرِّجالُ لا تَعرِفُ للمُستَحيلِ مَعنًى».

فنَزَلَ في فُندُقٍ على الكورنيش، في غُرفةٍ بالطَّابَقِ السَّادسِ تُطِلُّ على المُحيط، ودَفَعَ ثَمنَ ثَلاثة أسابيعَ مُقَدَّماً ولم يَسألْ كم هو؛ فإنَّ أبناءَ تلك البُيوتِ لا يَسألونَ عن الأثمان، وهذا أوَّلُ ما يَفقدونَه وآخرُ ما يَتعلَّمونَه من جَديد. وكان البَحرُ هناك غَيرَ بَحْرِ الدَّارِ البَيضاء؛ هذا أزرَقُ لا تَحمِلُه الرِّيحُ إليك كَرائِهَ المَصافي، وذاك رَماديٌّ ثَقيلٌ تُسَمِّيه المدينةُ بَحْراً من بابِ المُجامَلة.

* * *

رآها في كازينو أطلانتيك.

ولم يَكُنْ يَلعَب؛ إنَّما كانت القاعةُ في طَريقِ النُّزولِ إلى الكورنيش، فدَخَلَ لِيَنظُر، كما يَدخُلُ ابنُ النِّعمةِ إلى حَيثُ لا حاجةَ له؛ فإنَّ الذي لا يَحتاجُ شَيئاً يَدخُلُ الأبوابَ كُلَّها من فَراغٍ لا من

رَغبة، ويَمرُّ على الذَّهَب كما يَمرُّ على الحَجَر. وكانتْ هي واقفةً عندَ الآلة الفضِّيَّة تُشاهدُ خالَها يَخسَر، ضاحكةً من خُسرانه ضَحِكاً فيه شَفَقة. قال لي بَعدَ سَنَوات: «ضَحِكتْ، فسَمِعتُ الضَّحِكةَ قَبْلَ أن أرى صاحِبَتَها».

اسمُها نَوال. طَنْجاويَّةٌ في العشرين، تَدرُسُ في مَدينَتِها وتُصَيِّفُ مع أهلِها في الجَنوب. ولُغَتُها فيها ذلك المَدُّ الشَّماليُّ الذي يُشبِهُ المَوجَ، وفي عَينِها شَيءٌ من حِدَّةِ البَحْرِ الأبيَضِ لا من رُخاوةِ المُحيط.

وكان أبوها تاجِراً في طَنجة، له مَكتَبٌ قُربَ الميناء وبَيتٌ في المَرشان تُرى منه إسبانيا في الأيَّامِ الصَّافية. وكانتْ أُسرتُها من تلك الأُسَرِ الشَّماليَّة التي تَنزِلُ كلَّ صَيفٍ شَهراً في الجَنوب، تَحمِلُ معها عاداتِها ولُغَتَها وبَرْدَها، وتَرجِعُ في أوَّلِ شُتنبرَ قَبْلَ أن تَبدَأَ الدِّراسة.

وهذا أمرٌ يَجبُ أن يُقَرَّرَ في هذه الرِّواية تَقريراً واضِحاً، فإنَّه يُفَسِّرُ كُلَّ ما جاءَ بَعدَه: أنَّها لم تَنظُرْ إليه في تلك اللَّيلة من أسفَلَ ولا من أعلى. نَظَرَتْ إليه من حَيثُ هو: فَتًى من بَيتٍ كَبيتِها، يَنزِلُ في فُندُقٍ كفُندُقِها، ويُنفِقُ كما تُنفِقُ أُسرتُها، ولا يَنقُصُه من الدُّنيا شَيءٌ تَراه. تَعارَفا وهما مُتَكافِئان. وأُقسِمُ أنَّهما لو تَأخَّرا سَنَةً واحِدةً لَما تَعارَفا أصلاً؛ فإنَّ أبوابَ هذه البِلاد لا تُفتَحُ بالوُجوهِ وإنَّما تُفتَحُ بالعَناوين، ولو جاءَ إليها بَعدَ سَنَةٍ لَما وَصَلَ إلى القاعةِ التي رَآها فيها.

ولم يَنصَرِفا تلك اللَّيلة. بَقِيا في القاعة حتَّى خَرَجَ خالُها خاسِراً يُلاطِفُ خُسرانَه بالضَّحِك، ثُمَّ نَزَلوا جَميعاً إلى الكورنيش، فتَخَلَّفَ الخالُ عندَ مَقهًى ومَشَيا هما على الرَّصيفِ الطَّويلِ إلى حيثُ تَنتَهي الأضواءُ ويَبدَأُ هَديرُ المُحيطِ وَحدَه. وما كان في كَلامِهما تلك اللَّيلةَ شَيءٌ يُحفَظُ أو يُروى؛ كَلامُ فَتًى وفَتاةٍ في العِشرينَ عن الدِّراسةِ وعن المَدينَتَينِ وعن أيِّ البَحرَينِ أبرَد.

غَيرَ أنَّهما وَقَفا عندَ الدَّرَجِ الحَجَريِّ النَّازِلِ إلى الرَّمل، فسأَلَتْه عن اسمِه. فقال: طه. فقالتْ: «طه فَقَط؟» فقال: «طه فَقَط».

وكان ذلك آخِرَ صَيفٍ يَستَطيعُ فيه أن يُقَدِّمَ نَفسَه باسمٍ واحِد.

* * *

ثمَّ مَضَتْ ثَلاثةُ أيَّامٍ لم يَرَها فيها، فنَزَلَ إلى الكورنيشِ في الأيَّامِ الثَّلاثةِ كُلِّها في السَّاعةِ نَفسِها، وجَلَسَ في المَكانِ نَفسِه، وهو يُحَدِّثُ نَفسَه أنَّه جاءَ لأجلِ البَحر.

وفي صَباحِ الرَّابعِ وَجَدَ في مَكتَبِ الفُندُقِ وَرَقةً مَطويَّةً باسمِه: «المِيناءُ. السَّادِسةُ. عِندَ قَواربِ الصَّيد». ولا اسمَ في الوَرَقةِ ولا تَوقيع، وما كان يَحتاجُ إلى اسمٍ ولا إلى تَوقيع.

فنَزَلَ قَبْلَ المَوعدِ بأربَعينَ دَقيقة. هو الذي كان يُؤَخِّرُ النَّاسَ عن مَواعيدِهم ولا يَنتَظِرُ أحَداً في عُمرِه، وَقَفَ أربَعينَ دَقيقةً بينَ شِباكٍ مُبَلَّلةٍ ورائحةِ سَرْدينٍ وصِياحِ بَحَّارةٍ يُفَرِّغونَ صَناديقَهم، يَنظُرُ إلى السَّاعةِ في معصَمِه كُلَّ دَقيقتَين.

وقد قال لي، بَعدَ ذلك بسنينَ ومن خَلفِ شُبَّاكِ الزِّيارة، جُملةً واحدةً عن تلك الأربَعينَ دَقيقة: «هناك فَهِمتُ أنَّني سَأدفَعُ ثَمَناً. ما كُنتُ أعرِفُ كم، ولكنِّي عَرَفتُ أنَّ الحِسابَ فُتِح».

وكان طه في ذلك الصَّيفِ قد عَرَفَ من النِّساءِ ما يُفسِدُ القَلْبَ؛ لَيالٍ كَثيرةٌ لا أسماءَ لها، ووُجوهٌ لا يُمَيِّزُ بَعضَها من بَعض. ومن العَجيبِ أنَّ الرَّجُلَ الذي أكثَرَ من ذلك يَصيرُ أمامَ الحُبِّ الأوَّلِ أعجَزَ من الذي لم يُجَرِّبْ شيئاً؛ لأنَّه يَعرِفُ بالضَّبطِ ما لم يَكُنْ يُحِبّ، فيَرتَعِدُ حينَ يَرى ما يُحِبّ. وقد وَقَفَ أمامَها كالمُبتَدئ. وقال لي: «كُنتُ مُعلِّماً في كُلِّ شَيءٍ، وصِرتُ تِلميذاً في هذا الباب».

* * *

ومَضى الصَّيفُ ضَحِكاً ودَوَراناً. سَيَّارةٌ مَكشوفةٌ لا يَعرِفُ لها ثَمَناً لأنَّه لم يَدفَعْه قَطّ، وطَريقٌ ساحِليٌّ في الغُروبِ والشَّعرُ يَطيرُ، وسَمَكٌ مَشويٌّ في الميناءِ على طاوِلةٍ من خَشَبٍ خَشِن، ولَيالٍ في بابَاغايو حيثُ المُوسيقى عاليةٌ والنَّاسُ أغنياءُ أو يُمَثِّلونَ الغِنى، وإشاعاتٌ قالتْ عنهما ما لم يَكُن. ثمَّ انتَهى أغُسطُس كما يَنتَهي كُلُّ شَيءٍ جَميلٍ في هذه البِلاد: فَجأةً وبلا إعلان.

رَجَعَتْ هي إلى طَنجة، ورَجَعَ هو إلى الفيلَّا.

وبَعدَ ثَمانية أسابيعَ طُرِقَ البابُ ثَلاثَ طَرَقات، ودَخَلَ المعطَفُ الرَّماديُّ بمَلَفِّه الأزرَق، وحُمِلَتْ ثَلاثُ حَقائبَ إلى الحافلة رَقَم أربَعة وخَمسين. فصارَ ذلك الصَّيفُ، في أقَلَّ من شَهرَين، شَيئاً لا يُشبِهُ شَيئاً آخَرَ في حَياته؛ جَزيرةً انقَطَعَتْ عن القارَّة وبَقِيَتْ تَطفو.

وقد حَكاه لي بَعدَ ذلك عَشَراتِ المَرَّات. حَكاه لي في غُرفة أربَعة الأمتارِ المُرَبَّعة والمذياعُ يُطَنُّ، وحَكاه لي على سَطحِ البناية في الصَّيف، وحَكاه لي من خَلفِ شُبَّاكِ الزِّيارة في عُكَّاشةَ والقاعةُ تَصرُخُ حَولَنا. وكان يَحكيه بالتَّفاصيلِ نَفسها لا يَزيدُ فيها حَرْفاً ولا يَنقُص: الطَّابَقُ السَّادس، والآلةُ الفضِّيَّة، وخالُها الذي يَخسَر، ولَونُ ثَوبِها. كمن يُراجِعُ نَصّاً حَفِظَه مَخافةَ أن يَضيعَ منه. ولم أُقاطِعْه مَرَّةً واحِدة.

* * *

وبَقِيَتْ بَينَهما السَّنواتُ التَّاليةُ خَيطاً رَفيعاً لا يَنقَطِع: هاتفٌ عُموميٌّ في أوَّلِ الزُّقاق يَقِفُ أمامَه بقِطَعٍ نَقديَّةٍ يَعُدُّها في كَفِّه، ورَسائلُ بخَطِّ يَدٍ يَكتُبُها على الطَّاولة بَعدَ أن تَنامَ أُمُّه، وسَفَرٌ إلى الشَّمالِ في الحافلة اللَّيليَّة مَرَّةً كلَّ شَهرَين أو ثَلاثة؛ عَشْرُ ساعاتٍ على مَقعَدٍ لا يَرتَدُّ، تَحرُقُه فيها سَجائرُه ويَحرُقُه فيها تَفكيرُه، فيَصِلُ في الفَجْرِ إلى مَدينةٍ بَيضاءَ تَنظُرُ إلى إسبانيا، فيَغسِلُ وَجهَه في مِرحاضِ المَحطَّة ويَبتَسِم.

وكان يَدفَعُ ثَمَنَ تلك الأسفارِ من مالٍ تَعرِفُ أنتَ من أين كان يَأتي، وتَعرِفُ هي أنَّه يَعمَلُ في تِجارةِ الحَديدِ وقِطَعِ الغِيار.

ها هنا أوَّلُ كَذبةٍ كَذَبَها طه بنيَّةٍ حَسَنة. ومن أعجَبِ ما في الإنسانِ أنَّه يَكذِبُ على من يُحِبُّ لا لِيَأخُذَ منه شَيئاً، وإنَّما لِيَحمِيَ في عَينِه صُورةً يَعرِفُ هو أنَّها غَيرُ صَحيحة؛ فيَصيرُ حارِساً لِتِمثالٍ من مَرمَرٍ يَعلَمُ أنَّه أجوَف. ومَن حَرَسَ صورتَه عِندَ إنسانٍ واحِدٍ هذه الحِراسةَ، فإنَّ ذلك الإنسانَ قد صارَ آخِرَ ما بَقِيَ له من دين.

وقد سألتُه مَرَّةً: ولِمَ لا تُخبِرُها؟ قال: «لأنَّها الشَّيءُ الوَحيدُ في حَياتي الذي لم أُلَوِّثْه بعد. وكُلُّ ما مَسَّتْه يَدي صارَ لَوناً آخَر».

* * *

وقد قَرَأتُ من رَسائلها رِسالةً واحِدةً أطلَعَني عليها في ذلك الشِّتاء، وكان قد قَرَأَها حتَّى تَأكَّلَ طَيُّها. فيها سَطرٌ أذكُرُه بحَرْفه: «أنتَ تَكتُبُ لي كلَّ مَرَّة أنَّك مَشغولٌ في الحَديد. وأنا لا أعرِفُ الحَديدَ ولا أُريدُ أن أعرِفَه. أُريدُ أن أعرِفَ متى تَأتي وأنتَ مُرتاحٌ، لا متى تَأتي وأنتَ مُتعَب».

فقُلتُ له: إنَّها تَعرِف.

فأخَذَ الوَرَقةَ من يَدي وطَواها على طَيَّاتِها القَديمةِ ودَسَّها في جَيبِ معطَفِه، وقال: «لا. هي تَشُكّ. والشَّكُّ يُؤجَّل، وأمَّا العِلمُ فلا».

ومن أعجَبِ ما في النَّفْسِ البَشَرِيَّة أنَّها تَعتَبِرُ التَّأجيلَ نَوعاً من الحَلّ. وما التَّأجيلُ إلَّا رِبًا على الوَجَع: تَدفَعُ قَليلاً كلَّ شَهرٍ ويَتضاعَفُ الأصلُ، حتَّى يَجيءَ يَومٌ تُطالَبُ فيه بالكُلِّ دَفعةً واحِدةً وليس في يَدِك شَيء.

* * *

وقد عَلِمتُ بَعدَ سَنَوات أنَّ الشَّكَّ الذي كان يَطمَئِنُّ إليه كان عِلماً تامًّا. فقد كانتْ نَوالُ تَعرِف. تَعرِفُ كُلَّ شَيءٍ أو ما يَكفي منه، وتَسكُت.

ولم يَكُنْ في الأمرِ سرٌّ يُكشَف؛ إنَّما هي قَرائنُ لا تَفوتُ امرأةً في العشرين. كانتْ تَسمَعُ في أثناءِ المُكالَمة طَنيناً ثمَّ سُقوطَ قِطعةٍ نَقديَّة ثمَّ صَوتَ الزُّقاق من وَرائه، فتَعرِفُ أنَّه واقفٌ في الشَّارِع. وكانتْ تَراه يَصِلُ في الفَجْرِ لا في الظَّهيرة، فتَعرِفُ أنَّه جاءَ في الحافِلةِ اللَّيليَّة. ورَأتْ معطَفَه في

ثَلاثة شُتاءات هو نَفسُه، ورأَتْ يَدَيه وقد صارَ تَحتَ الأظافِرِ صَدَأٌ لا يَخرُجُ بالماء. ورأَتْ ساعةَ المِعصَمِ غائبةً ولم تَسألْ عنها.

فصارَتْ، في السَّنة الثَّانية، تَقتَرِحُ المَشْيَ على المَطاعِم. وصارَتْ تَقولُ إنَّ خالَها أعطاها تَذكِرَتَين فلا تَضيعا. ومَرَّةً واحدةً في عامٍ كامِلٍ سَبَقَتْ يَدَها يَدَه إلى الحِساب، ثُمَّ لم تَفعَلْها بَعدَ ذلك أبَداً؛ لأنَّها رأَتْ ما صَنَعَتْ في وَجهِه.

ها هنا، أيُّها القارئ، أعظَمُ ما في هذه الحكايةِ من جَمالٍ وأقساه. فإنَّ المَرأةَ تَعرِفُ بالقَرائنِ لا بالإقرار، وكَرَمُ نَوالَ لم يَكُنْ في أنَّها قَبِلَتْه فَقيراً — فهذا يُحسِنُه كَثيرون — وإنَّما كان في أنَّها تَظاهَرَتْ بأنَّها لا تَعرِف. ومَن أرادَ أن يُكرِمَ رَجُلاً مَكسوراً فليَترُكْ له صُورَتَه؛ فإنَّ الرَّجُلَ يَحتَمِلُ الفَقْرَ ولا يَحتَمِلُ أن يُرى وهو يَحتَمِلُه.

وفي الشِّتاءِ الأخيرِ من تلك السَّنَوات جَلَسا في مَقهًى على السَّاحِلِ في طَنجة، والزُّجاجُ أمامَهما تَضرِبُه الرِّيح. وكان يَشرَحُ لها صَفقةَ حَديدٍ لا وُجودَ لها، فأدارَتْ وَجهَها إلى البَحرِ وقالتْ له، بلا حِدَّةٍ ولا شَفَقةٍ ولا عِتاب:

«أنا لا أسأَلُك عن الحَديد».

خَمسُ كَلِمات. ولم تَزِدْ عليها حَرْفاً، ولم يَزِدْ هو. وقد حَكى لي هذا المَشهَدَ مَرَّةً واحدةً في عُمرِه، وقال في آخِرِه: «عَرَفتُ في تلك اللَّحظةِ أنَّها تَعرِفُ كُلَّ شَيءٍ منذ زَمَن، وأنَّها احتَمَلَتْ كَذِبي عليها احتِمالاً لم أستَحِقَّه. ومن يَومِها صِرتُ أخافُ منها خَوفاً لم أخَفْه من الشُّرطة».

وأحسِبُ أنِّي فَهِمتُ أخيراً لِمَ بَقِيَتْ هي، وَحدَها من كُلِّ مَن عَرَفَهم، حَبيبةً في قَلبِه إلى آخِرِ لَيلةٍ رأيتُه فيها: لأنَّ كُلَّ مَن حَولَه إمَّا خافَه وإمَّا أشفَقَ عليه، وهي وَحدَها لم تَفعَلْ واحِدةً من الاثنَتَين.

وفي شِتاءِ سَنةِ ألفَينِ وخَمسةٍ جاءَتِ الضَّربةُ الثَّانية، وكانتْ من حَيثُ جاءَتِ الأولى: من وَرَقة.

كان أبوه قد وَقَّعَ، في سَنة السُّقوط الأولى، أوراقاً أُخرى لم يُخبرْ أحداً بها؛ وَقَّعَ ظَنّاً أنَّه يُؤَخِّرُ الكارثةَ، وما كان يُؤَخِّرُ إلَّا مَوعدَها. فجاءَ الحُكْمُ بَعدَ خَمسِ سَنَواتٍ وأغلَقَ ما بَقيَ من حِساب، وجَفَّتِ الحَوالاتُ من ألمانيا شَهرَينِ لأنَّ أُختَه هي نَفسُها كانتْ قد خَسِرَتْ عَمَلَها.

فصارَ طه، في شَهرٍ واحد، مَسؤولاً عن ثَلاثة أجساد: جَسَدٍ يَحتاجُ التَّصفيةَ ثَلاثَ مَرَّاتٍ في الأسبوع، وجَسَدِ رَجُلٍ انكَسَرَ ظَهْرُه ولم يَعترِفْ، وجَسَدِه هو.

وفي تلك اللَّيلة، لَيلةِ الثَّلاثاء من دِجَنبر، جَلَسَ على سَطحِ البِناية ومَعي قِنِّينةُ شايٍ باردة، ونَظَرَ إلى أسلاكِ الكَهرَباءِ وقال كَلاماً لم أنسَه: «أنا الآنَ أمامَ بابَين يا صاحِبي: بابٌ أدخُلُ منه فَأُشبعُهم وأخسَرُ نَفسي، وبابٌ أبقى منه نَظيفاً وأراها تَموتُ وأنا أنظُر. وقد جَرَّبتُ النَّظافةَ ثَلاثةَ أشهُرٍ، فما أشبَعَتْ أحَداً».

فقُلتُ له كَلاماً إنشائيّاً عن الصَّبْرِ وعن أنَّ اللهَ لا يُضَيِّع. فنَظَرَ إليَّ نَظرةً طَويلةً وقال: «أنتَ تَكتُبُ الكَلامَ، وأنا أدفَعُ فاتورةَ الكَهرَباء».

ولم أجبْ. وقد مَرَّتْ على تلك اللَّيلة سَنواتٌ، وأنا ما زِلتُ لا أملكُ جَواباً عن تلك الجُملة. وكلُّ ما كَتَبتُه بَعدَها، كلُّ ما غَنَّيتُه ودَخَلَ في آذانِ النَّاسِ وجَلَبَ لي ما جَلَب، كان في حَقيقتِه مُحاوَلةً فاشِلةً للجَوابِ عن سُؤالٍ طَرَحَه عليَّ صَبيٌّ على سَطحِ بِنايةٍ في مولاي رشيد.

وفي الفَجْرِ نَزَلَ من السَّطح. وقد اختارَ الباب.

ولم يَبْقَ مِنَ الطَّريقِ إلى شُرفةٍ رَقمُها ثلاثةٌ وثلاثون غيرُ تِسعةِ أشهُرٍ وأحَدَ عَشَرَ يَوماً.

الفَصْلُ الخَامِسُ

الشُّرْفَةُ الثَّالِثَةُ وَالثَّلاثُون

في سَنةِ ألفَينِ وستَّةٍ صارَ للكُوبرا اسمٌ يَسبقُه إلى الأماكِن.

ومَن عَرَفَ الدَّرْبَ عَرَفَ أنَّ هذا نَفسُه هو أوَّلُ الهَلاك. فالرَّجُلُ في تلك الشَّوارِعِ يَعيشُ ما دامَ خافياً، فإذا صارَ اسمُه يُذكَرُ في المَقاهي وفي مَحاضِرِ الشُّرطة على السَّواء فقد دَخَلَ في العَدِّ التَّنازُلي، ولا يَدري هو ذلك؛ لأنَّ الهَيْبةَ تُسكِرُ أكثرَ ممَّا يُسكِرُ المال. وقد كان يَمُرُّ في الزُّقاق فيَفسَحُ له النَّاس: هذا يَخافُه، وهذا يُعانقُه، وهذا يَضَعُ ساعِدَه على صَدْرِه تَحيَّةً كما يُحَيِّي الصِّغارُ الكِبار. ومَرَّةً قُلتُ له: يا طه، هؤلاء لا يُحِبُّونَك. قال: «أعرِف. ولكنِّي تَعِبتُ من أن يَشفَقَ عليَّ أحَد. والخَوفُ، على الأقَلِّ، نَظيف».

كان مَعه في الشُّغْلِ رَجُلٌ من حَيٍّ آخَرَ يُنادونَه السِّي عَزُّوز؛ خَمسينيٌّ أصلَعُ يَلبَسُ جلباباً نَظيفاً ويُصَلِّي في الصَّفِّ الأوَّلِ ولا يَرفَعُ صَوتَه أبَداً. وقد قُلتُ لطه مَرَّةً إنِّي لا أرتاحُ إليه. قال: «عَزُّوز يَخافُ الله». قُلتُ: الذي يَخافُ اللهَ لا يَبيعُ هذا. فسَكَت.

* * *

في فَجْرِ الحادي عَشَرَ من مارس، وكانت السَّاعةُ الرَّابعةَ وثَلاثينَ دَقيقةً كما ثُبِّتَ في المَحضَرِ بَعدَ ذلك، سَمِعَ الدَّرْبُ صَوتاً لم يَسمَعْه من قَبل.

لم تَكُنْ صَفَّاراتٌ. السَّيَّاراتُ تَقِفُ بَعيداً ولا تُصَفِّر؛ هذه مَعرِفةٌ أُخرى لا يَملِكُها إلَّا من عاشَ هناك. وإنَّما كان صَوتَ أحذيةٍ ثَقيلةٍ على دَرَجٍ إسمنتيٍّ رَطْب، تَصعَدُ بإيقاعٍ واحِدٍ لا يَستَعجِلُ ولا يَتأخَّر. وفي الطَّابَقِ الثَّالثِ تَوَقَّفَ الإيقاع.

ثمَّ طُرِقَ البابُ ثَلاثَ طَرَقات. ثَلاثاً. لا أربَعاً ولا اثنَتَين.

واللهِ ما أعرِفُ شَيئاً في هذه الحكاية أقسى من هذا: أنَّ الرَّجُلَ سَمِعَ الطَّرَقاتِ الثَّلاثَ مَرَّتَين في عُمرِه؛ مَرَّةً وهو ابنُ ثَمانيَ عشْرةَ سَنَةً تَأخُذُ منه الدَّولةُ البَيتَ، ومَرَّةً وهو ابنُ أربَعٍ وعِشرينَ تَأخُذُ منه الدَّولةُ ما بَقِيَ. الإيقاعُ نَفسُه، والبابُ آخَر.

فتَحَت الأُمُّ البابَ. تلك المَرأةُ التي كانتْ قد خَرَجَتْ من التَّصفيةِ قَبْلَ تسعِ ساعات، فتَحَتْ وهي في ملحَفَتِها، فدَخَلوا. وكان هو واقِفاً في الرُّكْنِ وقَد استَيقَظَ على الصَّوْت، ولم يَجْرِ ولم يَصرُخ. وقد سألتُه بَعدَ ذلك: لِمَ لم تَجْرِ؟ قال: «إلى أين؟ الغُرفةُ أربَعةُ أمتار».

لم يَجِدوا في الغُرفةِ شَيئاً كَثيراً. وَجَدوا ما يَكفي.

وأمَّا السِّي عَزُّوز فإنَّه لم يُعتَقَلْ في ذلك الفَجْر، ولا في الذي بَعدَه، ولا في الذي بَعدَه. وقد رآه النَّاسُ في الصَّفِّ الأوَّلِ يومَ الجُمعةِ كما كان، نَظيفَ الجلبابِ خافضَ الصَّوت. وهذه هي الصَّفحةُ التي لا يُحِبُّ أحَدٌ أن يَقرأَها في كُتُبِ الجَريمة: أنَّ الذي يُمسِكُ غَيرُ الذي يَأكُل، وأنَّ في كلِّ شَبَكةٍ خَيطاً واحِداً مَفهومٌ عِندَ الجَميعِ أنَّه لا يُقَصّ.

* * *

* * *

وقد حَدَّثَني عن أربَعةٍ وعِشرينَ ساعةً في المَفوَّضيَّةِ حَديثاً قَصيراً لا زِيادةَ فيه.

قال: «أعجَبُ ما في التَّحقيقِ أنَّهم لا يَسألونَك عَمَّا فَعَلتَ. هم يَعرِفونَ ما فَعَلتَ، والمَحضَرُ مَكتوبٌ قَبْلَ أن تَدخُل. إنَّما يَسألونَك عَمَّن مَعَك. وفي السَّاعاتِ الأولى تَظُنُّ أنَّ المَسألةَ مَسألةُ شَرَف: أتَكونُ رَجُلاً أم تَكونُ واحِداً من الذين يَتكلَّمون. ثُمَّ يَمُرُّ اللَّيلُ فتَفهَمُ أنَّ المَسألةَ أهوَنُ من ذلك وأقسى: إنَّهم لا يَحتاجونَ إلى كَلامِك أصلاً. يَعرِضونَ عليك البابَ لِتَرى أنَّك ما مَلَكتَ يَوماً مِفتاحاً».

قُلتُ: فهل ذَكَرتَ أحَداً؟

قال: «لا». ثمَّ سكَتَ وقال: «ولم يَكُنْ ذلك من الشَّرَف. إنَّما كُنتُ أعرِفُ أنَّ عَزُّوزَ لو ذُكِرَ اسمُه لَما مَسَّه شَيء، ولو سكَتُّ لَما مَسَّه شَيء. فاختَرتُ الصَّمتَ لأنَّه لا يُغَيِّرُ شَيئاً. وهذه أرخَصُ فَضيلةٍ في الدُّنيا: فَضيلةٌ لا تُكَلِّفُك».

أمَّا عُكَّاشةُ فإنَّها مَدينةٌ داخِلَ مَدينة.

سُورٌ طَويلٌ أصفَرُ يَراه الذَّاهبُ إلى عَينِ السَّبْعِ فيُحَوِّلُ نَظَرَه. وفي داخله أجنحةٌ سَمَّاها السُّجَناءُ بأسماءِ المُدُنِ الغَنيَّة؛ فذلك جَناحٌ يُسَمُّونَه أبو ظَبي، تَهكُّماً أو حُلْماً، فلا أدري أيَّ المَعنَيَين أرادوا، ولعَلَّهم أرادوهما جَميعاً، فإنَّ السُّخريَةَ في بِلادِنا هي الصِّيغةُ الأخيرةُ التي يَتَّخِذُها الأمَل.

وفي ذلك الجَناحِ كانتْ زَنزانتُه، ولها فَتحةٌ عاليةٌ يُسَمُّونَها الشُّرفة، ورَقَمُها على اللَّائحةِ ثلاثةٌ وثلاثون.

ثلاثةٌ وثلاثون. وقد كان يَقولُ لي إنَّه عَدَّ القُضْبانَ في تلك الفَتحةِ ألفَ مَرَّة، وإنَّه حَفِظَ شَكْلَ الصَّدَإِ على القَضيبِ الرَّابعِ حتَّى صارَ يَراه وهو مُغمِضُ العَينَين. قال: «في الشُّرفةِ ثلاثةٌ وثلاثين لا إغماءةٌ ولا نَوم. النَّومُ هناك شَيءٌ آخَرُ غَيرُ النَّوم؛ إنَّما هو غِيابٌ قَصيرٌ تَعودُ منه إلى المَكانِ نَفسِه، فتَكونُ قد خَسِرتَ الرَّاحةَ ولم تَكسِبِ النِّسيان».

* * *

والسِّجنُ لا يُصلِحُ ولا يُفسد. هذا ما خَرَجتُ به من حِكايةِ صاحِبي، وأقولُه وأنا أعلَمُ أنَّ في الكَلامِ جُرْأة. فالذي يَقولون إنَّه مُؤَسَّسةٌ للإصلاحِ لم يُصلِحْ أحَداً عَرَفتُه، والذي يَقولون إنَّه مَدرسةٌ للجَريمةِ لم يُعَلِّمْ طه شَيئاً لم يَكُنْ يَعرِفُه. إنَّما هو يُجَمِّد. يَأخُذُ الإنسانَ في سِنٍّ ويُعيدُه إليك في السِّنِّ نَفسِها وقد مَضَتْ سَنَوات؛ فتَنظُرُ إلى الوَجْهِ فتَراه قد كَبِرَ، وتَنظُرُ إلى الكَلامِ فتَجِدُه كَلامَ من دَخَل. الزَّمَنُ يَمشي في الخارِجِ ويَقِفُ في الدَّاخِل، ثمَّ تُفتَحُ البَوَّابةُ فيَخرُجُ رَجُلٌ عُمرُه ثَلاثون وسِنُّه أربَعٌ وعِشرون.

وفي الدَّاخلِ بَدَأَ يَكتُب. طَلَبَ قَلَماً وكُرَّاساً من المَكتَبة، وصارَ يَكتُبُ في الصَّفحاتِ الأولى يَوميَّاتٍ لا نَظْمَ فيها: أسماءَ من دَخَلَ معه، وأسعارَ ما كان يَبيعُ، ووَصْفَ الحَوضِ الفارِغِ في فيلَّا كاليفورنيا. وقال لي في أوَّلِ زِيارة، وبَينَنا شُبَّاكٌ وصَوتُ أربَعينَ عائلةً تَصرُخُ في وَقتٍ واحِد: «هذه الصَّفحةُ الأولى من كِتابٍ خَرَجَ من زَنزانة. لا من ضَيْفٍ على بَرنامَجٍ في التِّلفاز».

فقُلتُ له: سأُسَجِّلُها إذاً. قال: «سَجِّلْ. وسَمِّها بما شِئتَ، بشَرطٍ واحِد: لا تَجعَلْني بَطَلاً».

* * *

في شَهْرِ نُونبر، بَعدَ ثَمانيَةِ أشهُرٍ من الدُّخول، جاءَتْه الرِّسالةُ الأولى من ألمانيا: أُختُه في المُستَشفى؛ تَوَقَّفَ قَلبُها في مَطبَخِ شُقَّتِها وهي تَضَعُ إبريقاً على النَّار، وأُنعِشَتْ بَعدَ دَقيقتَينِ وعِشرينَ ثانية. دَقيقتانِ وعِشرونَ ثانية. وقد صارَ يُرَدِّدُ هذا الرَّقَمَ كأنَّه يُحاسِبُ به أحَداً.

وفي الثَّالثِ من فَبرايرَ ماتَتْ أُمُّه.

لم تَمُتْ في التَّصفية، ولا في المُستَشفى. ماتَتْ في الغُرفة، في أربَعةِ الأمتارِ المُرَبَّعة، في الثَّالثةِ بَعدَ الزَّوال، وفي يَدِها ثَوبٌ كانتْ تَخيطُه لأنَّها سَمِعَتْ أنَّ ابنَها قد يَخرُجُ في الصَّيف.

ولم يَعلَمْ هو في ذلك اليَوم. عَلِمَ بَعدَ أربَعةٍ وعِشرينَ ساعة، حينَ جاءَ أبوه إلى الزِّيارةِ وَحدَه.

وقد حَدَّثَني عن تلك اللَّحظةِ مَرَّةً واحِدةً في عُمرِه، وبكَلِمات قَليلة لا أُحِبُّ أن أزيدَ عليها شَيئاً. قال: «رأيتُ أبي من بَعيد وهو يَعبُرُ القاعة. وكان وَحدَه. وكُنتُ أعرِفُ أنَّه إذا جاءَ وَحدَه فالأمرُ قد انتَهى، فإنَّها لم تَتخلَّفْ عن زِيارةٍ قَطُّ وهي تَجيءُ وفي ذِراعِها ثُقْبُ الإبْرة. فجَلَستُ قَبْلَ أن يَتكلَّم. وقال لي كَلاماً لم أسمَعْه؛ إنَّما كُنتُ أنظُرُ إلى يَدِه على الزُّجاجِ وأُفَكِّرُ في شَيءٍ واحِدٍ تافِه: هل أطفَأَ أحَدٌ ضَوءَ الغُرفة؟».

ثمَّ قال: «في تلك اللَّحظة عَرَفتُ أنَّ ما كُنتُ أُسَمِّيه عَمَلاً من أجلها، كان في الحَقيقة عَمَلاً من أجلي. فإنِّي لو كُنتُ من أجلها حَقَّاً لَبَقِيتُ إلى جانبِها فَقيراً، ولَكانَ أهنأَ لها من دَواءٍ شَرِبَتْه وهي لا تَعرِفُ ثَمَنَه».

هذه، أيُّها القارئُ، أصدَقُ جُملة قالَها رَجُلٌ في هذه الرِّواية. وهي اعترافٌ لا يُحسنُه إلَّا من فَقَدَ كُلَّ شَيءٍ؛ فإنَّ الإنسانَ يَبني لِنَفسه في العادة عُذْراً نَبيلاً يَستُرُ به اختيارَه، ويَحرُسُ ذلك العُذرَ حراسةً أشَدَّ من حراسة ماله. فإذا مات من كان العُذرُ باسمه، بَقِيَ العُذْرُ عُرياناً، ورأى الرَّجُلُ وَجْهَه في المِرآة أوَّلَ مَرَّة.

* * *

خَرَجَ في صَيف سَنة ألفَين وتسع.

وَقَفتُ له عندَ البَوَّابة الصَّفراء في السَّابعة صَباحاً وفي يَدي كيسٌ فيه خُبْزٌ وزَيتونٌ وشايٌ في قِنِّينة حَراريَّة. وخَرَجَ. وكان أعرَضَ قَليلاً، وأقصَرَ شَعراً، وفي عَينه هُدوءٌ أفزَعَني أكثَرَ من كُلِّ غَضَبٍ رأيتُه فيها من قَبل.

عانَقَني ثمَّ نَظَرَ إلى الشَّارِع، وقال: «الدَّرْبُ ما زالَ في مَكانِه؟» قُلتُ: ما زال.

قال: «إذاً لم يَكُنْ في الأمرِ مَعنًى».

ثمَّ قال، قبلَ أن يَفتَحَ الكيسَ وقبلَ أن يَشرَبَ جُرعةَ شايٍ واحِدة: «خُذْني إليها».

فمَضَينا. ولم نَمُرَّ على بَيتٍ ولا على مَقهًى ولا على قَبْرِ أبيه، فقد مات الأبُ بَعدَ ذلك بسنين. مَضَينا من بابِ السِّجنِ إلى المَقبَرةِ مُباشَرةً، في حافِلَتَينِ وطَريقٍ طَويلٍ على القَدَمَين، وهو ساكِتٌ طُولَ الطَّريقِ لا يَنظُرُ إلى شَيء.

وكان قَبْرُها في الصَّفِّ الحادي عَشَر، بحَجَرٍ أبيَضَ صَغيرٍ عليه اسمُها وتاريخٌ واحد، وقد نَبَتَ في طَرَفِه عُشْبٌ أصفَرُ. وَقَفَ عِندَه ولم يَبْكِ. قَرَأَ الفاتِحةَ مَرَّتَين، ثمَّ جَلَسَ على التُّرابِ جِلسةَ

رَجُلٍ عادَ إلى بَيتِه بَعدَ غَيبةٍ طَويلةٍ فوَجَدَه خالياً، وبَقِيَ على تلك الجِلسةِ قَريباً من ساعةٍ وأنا واقِفٌ على خُطواتٍ منه.

ثمَّ سَألَني ثَلاثةَ أسئلةٍ لا غَير، وبصوتٍ لا يَرتَفِع: مَن حَمَلَ النَّعْش؟ ومَن صَلَّى عليها؟ وهل تَمَّ الثَّوبُ الذي كانت تَخيطُه؟

فأجَبتُه عن الأوَّلَين، وسَكَتُّ عن الثَّالث. فإنَّ ذلك الثَّوبَ وَجَدوه على المَرْتَبة وقد بَقِيَ منه كُمٌّ واحِدٌ غَيرُ مَخيط، ولم يَكُنْ في الدُّنيا كَلامٌ أقدرُ على أن أقولَه له في ذلك الصَّباح.

فنَظَرَ إليَّ ونَظَرَ إلى الحَجَرِ الأبيَض، وفَهِمَ. وقال كَلِمةً واحِدة: «غَفَرَ اللهُ لي».

* * *

وفي المَساء، وقد خَرَجنا من باب المَقبَرة ووَقَفنا عندَ مَوقِف الحافلة، أخرَجَ سيجارةً ولم يُشعِلْها، وقَلَّبَها بين أصابِعه طَويلاً. ثمَّ سَألَ سُؤالَه الثَّاني، وكان آخِرَ ما قالَه في ذلك اليَوم:

«ونَوال؟»

الفَصْلُ السَّادِسُ

زُوَيْلَك

كانتْ نَوالُ قد تَزَوَّجَتْ.

لم يَقُلْ لي أحَدٌ كيف عَلِم، ولا أعرِفُ إن كانتْ قد كَتَبَتْ إليه أو عَلِمَ من غَيرِها. وأعرِفُ أنَّه لم يَذكُرِ اسمَها بَعدَ ذلك اليَومِ ثَلاثَ سَنَواتٍ كامِلة، ثُمَّ ذَكَرَه مَرَّةً واحِدةً في لَيلةٍ سَيَجيءُ ذِكْرُها.

ولا يَفهَمُ هذا إلَّا من يَعرِفُ أنَّ الرَّجُلَ المَنكوبَ لا يُطيقُ من الخَسارةِ إلَّا واحِدةً في كلِّ مَرَّة؛ فإذا تَراكَمَتِ الخَساراتُ اختارَ منها واحِدةً يَحمِلُها وأخفى الباقيَ تَحتَ الثِّياب. وقد اختارَ أن يَحمِلَ أُمَّه. وأمَّا نَوالُ فإنَّه طَواها كما تُطوى رِسالَةٌ لم تُرسَلْ ودُسَّتْ في جَيبِ مِعطَفٍ شِتَويٍّ عُلِّقَ في الخِزانة.

* * *

في خَريفِ سَنةِ ألفَينِ وعَشَرةٍ قال لي: «خارِج».

ولم يَقُلْ أوروبا، ولا إسبانيا، ولا إيطاليا. قال: خارِج. وهذه الكَلِمةُ وَحدَها تَكفي لِتَفهَمَ شَيئاً عن جِيلٍ كامِلٍ في هذه البِلاد؛ فإنَّ الوِجهةَ عِندَه ليستْ بَلَداً بعَينِه، وإنَّما هي نَفْيُ المَكانِ الذي هو فيه. يُريدُ الخُروجَ لا الوُصول. وهذا أخطَرُ أنواعِ الهِجرة؛ لأنَّ الذي يَطلُبُ بَلَداً قد يَجِدُه، وأمَّا الذي يَطلُبُ الخُروجَ فإنَّه يَحمِلُ ما خَرَجَ منه في حَقيبتِه.

دَفَعَ ما جَمَعَه إلى رَجُلٍ في الشَّمالِ لا يُرى وَجْهُه في النَّهار. وانتَظَرَ أحَدَ عَشَرَ يوماً في غُرفةٍ مع سَبعةَ عَشَرَ آخَرين، في بَيتٍ قَريبٍ من الشَّاطئِ لا يُسمَحُ فيه بفَتْحِ النَّافِذة. ثُمَّ جاءَتِ اللَّيلةُ التي يَكونُ فيها البَحرُ، بِحِسابِ الرِّجالِ الذين يَبيعونَ البَحر، صالِحاً.

والزُّودياك قاربٌ من مَطَّاط أسودَ لا ظَهْرَ له ولا جانب؛ إنَّما هو حَلْقةٌ تَجلسُ على حافَتِها فتَصيرُ ظَهْرُك إلى الماء وبَطْنُك إلى عشرينَ رَجُلاً يَرتَجفون. ولا يُعطَى الرَّاكبُ سُترةَ نَجاة، وإنَّما يُعطَى كيساً من البلاستيك يَضَعُ فيه الهاتفَ والوَرَق.

حَدَّثَني عن تلك اللَّيلة فقال: «لم أخَفْ من الغَرَق يا صاحِبي. أقسمُ أنِّي لم أخَفْ. إنَّما خفتُ من شَيءٍ آخَر: من أنِّي كُنتُ أنظُرُ إلى تلك الأضواءِ البَعيدة على السَّاحِلِ الآخَرِ وأنا أعرِفُ أنَّها أضواءُ مَدينةٍ لا تَعرِفُ باسمي ولا تَنتَظِرُني، ولن يَتغيَّرَ فيها شَيءٌ إن وَصَلتُ أو لم أصِل. هذا هو الرُّعْب: أن تَكونَ في مُنتَصَفِ البَحرِ فَتَفهَمَ أنَّك لا تُحدِثُ فَرْقاً في أيِّ ضِفَّةٍ من الضِّفَّتَين».

* * *

وَصَلَ.

وما في الوُصولِ من الحكايةِ شَيءٌ يَستَحِقُّ الوَصْفَ الطَّويل. سَنتانِ في مُدُنٍ لا أسماءَ لها في هذه الرِّواية، ومَساكِنُ ثَمانيةُ رِجالٍ في غُرفة، وبَرْدٌ يَدخُلُ العَظْمَ ولا يَدخُلُ الثِّياب، وقِطافُ ما يُقطَفُ في المَزارِعِ بأربَعةِ دَراهِمَ في الصُّندوق، ومُفاوَضةٌ كلَّ صَباحٍ على الرَّصيفِ مع رَجُلٍ في شاحِنةٍ بَيضاءَ لا يَنزِلُ منها.

وقد قال لي جُملةً أحمِلُها إلى اليَوم: «كُنتُ هناك أنظُرُ إلى الفُستُقِ في واجِهةِ الدُّكَّانِ ولا أشتَري، وأتَقَيَّأُ الدَّمَ في مِرحاضِ المَحطَّةِ من قُرحةٍ في مَعِدَتي. وكُنتُ في الدَّرْبِ أُنفِقُ في اللَّيلةِ ما لا أجمَعُه هناك في شَهر. فأيُّهما الغُربةُ، يا صاحِبي؟ الغُربةُ أن تَكونَ في مَكانٍ لا يَعرِفُك، أو أن تَكونَ في مَكانٍ يَعرِفُك ويَعرِفُ أنَّكَ لا تَستَحِقُّ شَيئاً؟».

رَجَعَ في سَنةِ ألفَينِ واثنَتَيْ عَشْرة. لا أدري أرُحِّلَ أم رَجَعَ باختِيارِه؛ قال مَرَّةً هذا ومَرَّةً ذاك، وأنا لا أُجْهِدُ نَفسي في التَّمييزِ بينَ الأمرَين، فإنَّ الرَّجُلَ الذي يَعودُ مَكسوراً يَحتاجُ إلى رِوايةٍ يَحكيها لِنَفسِه، ومن حَقِّه عليَّ أن أدَعَ له رِوايتَه.

ورَجَعَ أعتى.

* * *

ورَجَعَ ساخِطاً على البِلادِ سَخَطاً أدهَشَني.

فقد وَجَدَها، كما كان يَقول، قد زادَتْ. زادَ لَيلُها واتَّسَعَ وصارَ له سوقٌ وأثمانٌ مُعلَنة؛ وصارَ ما كان يُخفى يُعرَضُ في الواجِهات؛ وصارَتْ أجسادٌ تُشتَرى بما يُشتَرى به الهاتف، وبِنتٌ في الثَّامِنةَ عشْرةَ تُساقُ إلى ما لا يُحكى، ووَلَدٌ في السَّادِسةَ عشْرةَ يُشتَرى هو أيضاً وليس له من يَسألُ عنه. وكان يَحكي لي هذا في المَقهى بصَوتٍ خَفيضٍ وفي عَينِه تَقَزُّزٌ صادِق، ويَقول: «خَرَجتُ سَنَتَينِ فرَجَعتُ إلى بِلادٍ أُخرى».

فنَظَرتُ إليه ولم أقُلْ شَيئاً. وقد كان في صَدري جَوابٌ كَتَمتُه، وهو أنَّه لم يَكُنْ من حَقِّه هو أن يَتقَزَّزَ من أحَد. فالذي باعَ السُّمَّ في زُقاقِ سَبعَ سَنَواتٍ ليس بالذي يُحاسِبُ المدينةَ على ما صارَتْ إليه. وأمَّا هو فلم يَرَ في ذلك تَناقُضاً؛ وهذا شَأنُ النَّاسِ جَميعاً، لا شَأنَه وَحدَه: يَرى الواحِدُ مِنَّا الفَسادَ كُلَّه ويَرى نَفسَه واقِفاً خارِجَه، فيَصيرُ آخِرَ من يَعرِفُ أنَّه داخِلٌ في العَدّ.

غَيرَ أنِّي عَرَفتُ، بَعدَ ذلك بسَنَوات، أنَّ سَخَطَه على البلاد ما كان سَخَطاً على البلاد. كان حُزْناً على شَيءٍ آخَر: أنَّه رَجَعَ فلم يَجدْ ما تَرَكَه. فإنَّ الرَّجُلَ الذي يَغيبُ يَتَوَقَّفُ الزَّمَنُ عِندَه ويَمشي عِندَ النَّاس، فلَمَّا رَجَعَ وَجَدَ أنَّ الدُّنيا لم تَنتَظِرْه، فسَمَّى ذلك فَساداً في الدُّنيا، وكان نَقْصاً في مَوضِعِه هو.

* * *

ولَمَّا رَجَعَ وَجَدَ الدَّرْبَ قد تَغيَّرَ تَغيُّراً لا يَراه الغَريب.

الزُّقاقُ هو الزُّقاق، والأسلاكُ هي الأسلاك، والدُّكَّانُ في مَكانه وقد شاخَ صاحِبُه. غَيرَ أنَّ الهاتِفَ العُمومِيَّ في أوَّلِ الزُّقاق، الذي وَقَفَ أمامَه سَبعَ سَنَواتٍ يَعُدُّ القِطَعَ النَّقديَّةَ في كَفِّه، كان

قد انتُزِعَ من الحائط وبَقِيَ مَوضعُه مُستَطيلاً أفتَحَ لَوناً من الجدار. وصارَ لكلِّ وَلَدٍ في الحَيِّ هاتفٌ في جَيبِه يَرى فيه الدُّنيا كُلَّها ولا يَستَطيعُ أن يَدخُلَ منها شَيئاً.

وقال لي وهو يَنظُرُ إلى ذلك المُستَطيلِ الفاتحِ على الجدار: «في زَماني كانَ الفَقيرُ لا يَرى الغِنى إلَّا في العام مَرَّة، في فِلمٍ أو في شارعٍ بَعيد. وهؤلاء يَرَونَه في كَفِّهم أربَعَ عَشْرةَ ساعةً في اليَوم. واللهِ إنَّهم أشَدُّ مِنَّا فَقْراً، وهم يَأكُلون».

وفي سَنَةِ ألفَينِ وأربَعةَ عَشَرَ ماتَ أبوه، فلم يُبْكِ عليه كَثيراً، ودَفَنَه بجانبِ أُمِّه ودَفَعَ ثَمَنَ القَبْرِ من مالٍ تَعرِفُ أنتَ من أين كان يَأتي.

وبَعدَها بسَنَتَينِ كان له كَراجٌ في زُقاقٍ خَلفيٍّ، وفيه دَرَّاجةٌ ناريَّةٌ يابانيَّةٌ لا يَملِكُها في المدينة عَشَرة، تُصدِرُ عندَ الفَجْرِ ذلك الصَّوتَ الذي سَمِعتُه في شارعِ إكسلسيورَ تلك اللَّيلة. وكان يَلبَسُ قُبَّعةً سَوداءَ وسِلسِلةً وساعةً، وفي جَيبِ مِعطَفِه الدَّاخليِّ شَيءٌ كانوا يُسَمُّونَه في الزُّقاقِ «البِطاقة».

والبِطاقةُ في لِسانِ الدَّرْبِ ليستْ بِطاقةً. هي النَّصلُ. ويَقولون: «يُخَلِّصُ النَّاسَ بالبِطاقة»، أي يَستَوفي حَقَّه ويُسَوِّي حِسابَه بالحَديدِ لا بالكَلام. ويَقولون للرَّجُلِ إذا أخطَأَ في المَوعِدِ أو في الحِساب: «غَلِطَ في الكود»، ثمَّ تَمُرُّ على وَجْهِه البِطاقةُ فيَحمِلَ أثَرَها ما بَقِيَ له عُمْر.

وقد سَأَلتُه مَرَّةً: ولِمَ تُسَمُّونَها بطاقةً؟ فقال، وهو لا يَرفَعُ عَينَه عن المُحَرِّكِ الذي كان يَمسَحُه: «لأنَّ الذي يَدفَعُ بها لا يَرى الدَّمَ. تُمَدُّ وتُسحَبُ وينتَهي الحِساب».

وأنا أقولُ لك: هذه أخطَرُ لُغةٍ في الدُّنيا. فإنَّ الزُّقاقَ لا يُسَمِّي الأشياءَ بأسمائها، لا من حَياءٍ ولا من ظَرْف، وإنَّما لأنَّ الاسمَ الصَّحيحَ يُقعِدُ صاحبَه عن الفعل. ومَن قال «سأَطعَنُ وَجهَ رَجُلٍ» ارتَجَفَتْ يَدُه؛ ومَن قال «سأُخَلِّصُه بالبِطاقة» صارَ الأمرُ عِندَه مُعامَلةً كمُعامَلاتِ الدُّكَّان. وهكذا تُقتَلُ النَّاسُ: تُبَدَّلُ لها الأسماءُ أوَّلاً.

ولم أسألْه قَطُّ عن عَدَدِ من مَرَّتْ على وَجْهِه. ولم يُخبِرْني. وأحسِبُ أنَّ ذلك كان اتِّفاقاً بَيننا لم يُقَلْ بلِسان.

وها هنا أعتَرِفُ بشَيء: إنَّ أخطَرَ ما جَرَى لطه لم يَكُنِ السِّجنَ ولا البَحرَ ولا اليُتم. أخطَرُ ما جَرَى له أنَّه نَجَح. أنَّه صارَ في عُرْفِ الزُّقاقِ رَجُلاً واصِلاً، له كَراجٌ ودَرَّاجةٌ وهَيْبةٌ ومالٌ يَدخُلُ كلَّ لَيلة. فإنَّ الفَشَلَ في الحَرامِ رَحمةٌ تُرَدُّ بها النَّفْسُ إلى الطَّريق، وأمَّا النَّجاحُ فيه فإنَّه يُغلِقُ البابَ ويَرمي المِفتاحَ؛ ومن ذاقَ الثَّمَرةَ فلن تُقنِعَه مَوعِظةٌ بأنَّ الشَّجَرةَ خَبيثة.

* * *

وأمَّا أنا.

أمَّا أنا فقد صَعِدتُ في تلك السَّنَوات نَفسها. أخَذتُ الكُرَّاسَ الذي كَتَبَه في عُكَّاشة، وأخَذتُ الكَلامَ الذي سَمِعتُه على السَّطحِ وفي الزِّيارات، فجَعَلتُه إيقاعاً ولُغةً وقافِيَة. ودَخَلَ ذلك في آذانِ مِئاتِ الآلاف. ووَقَفتُ على خَشَبةٍ والنَّاسُ تُرَدِّدُ معي جُملةً سَمِعتُها من رَجُلٍ كان في تلك اللَّحظةِ يَبيعُ غُراماً في زُقاقٍ مُعتِم.

وقد سَمَّوني المُورفين، وظَنُّوا أنَّ في الاسمِ فُحولةً أو لَذَّة. والحَقُّ أنَّهم أصابوا من غَيرِ أن يَعرِفوا؛ فإنَّ المُورفينَ لا يُشفي شَيئاً. يُسَكِّنُ الوَجَعَ ساعةً، ويَبقى الوَرَمُ في مَوضِعِه يَكبُر.

الفَنُّ ليس نَجاةً، أيُّها القارئ. هذه خُلاصةُ عشرينَ سَنةً أقولُها وأنا أعرِفُ ما تُكَلِّفُني. الفَنُّ شَهادةٌ، وقد تَكونُ شَهادةً شَريفة؛ غَيرَ أنَّه حينَ يَصيرُ مِهنةً تُعاشُ، صارَ صاحِبُه يَعيشُ بجانبِ الجُرحِ ويَأكُلُ منه ولا يَضَعُ يَدَه عليه.

ولستُ أزعُمُ أنِّي تَمَنَّيتُ لصاحِبي سُقوطاً، فما خَطَرَ لي ذلك يَوماً، ولو خَطَرَ لَكُنتُ أهوَنَ من أن أكتُبَ هذه الصَّفحات. إنَّما أزعُمُ شَيئاً آخَرَ أهدَأَ وأقبَحَ: أنِّي استَرَحتُ إلى مَوقِعي. مَوقِعُ

الذي يَحكي مَوقِعٌ مُريحٌ يا صاحِبي: تَقولُ الوَجَعَ ولا تَدفَعُ فاتورتَه، وتَبكي على الدَّرْبِ من غُرفةٍ لها نافذةٌ مُزدَوِجةُ الزُّجاج.

وقُلتُ له «ارجِعْ» مَرَّات، هذا حَقٌّ. غَيرَ أنِّي قُلتُها كما تُقالُ الكَلِمةُ لا كما يُقالُ الطَّلَب؛ أقولُها ثمَّ أسكُت، ولا أُلِحُّ، ولا أُغلِقُ عليه باباً، ولا أعرِضُ عليه مَخرَجاً أدفَعُ أنا ثَمَنَه. وكان أمامي في تلك السَّنَواتِ ما يَكفي لأن أفتَحَ له طَريقاً آخَر، فلم أفعَلْ؛ لأنَّ الطَّريقَ الآخَرَ كان يَعني أن أُقاسِمَه حَياتي لا أن أحكِيَها.

ثمَّ سَمَّيتُ هذا كُلَّه وَفاءً. وهذا أخطَرُ ما في الإنسان: أن يُسَمِّيَ راحَتَه باسمِ فَضيلة، فيَنامَ مُرتاحَ الضَّميرِ وهو مُقَصِّر. فما كُنتُ خائناً، وإنَّما كُنتُ مُقيماً على الحافَةِ أُصَوِّرُ من يَغرَق.

ولْيَعلَمْ من يَقرَأُ أنَّ كُلَّ ما صَنَعتُه بحكايةِ صاحِبي أنِّي حَوَّلتُها إلى جُرعةٍ يَأخُذُها الشَّبابُ في سَيَّاراتِهم وفي سَمَّاعاتِهم فيَرتاحونَ ساعةً، ويَبقى الدَّرْبُ كما هو، وتَبقى أربَعةُ الأمتارِ كما هي، ويَبقى عَزُّوزُ في الصَّفِّ الأوَّل.

هذا اعترافي، وقد تَأخَّرَ ثَلاثةَ عَشَرَ عاماً، وجاءَ في بَهْوِ فُندقٍ على وَرَقةٍ طَلَبَها هو ولم يَحضُرْ لِيَقرَأَها.

* * *

وفي صَيفِ السَّنةِ الماضيةِ جَلَسنا، نَحنُ العَشَرةُ الباقونَ من ثَلاثينَ، على سَطحٍ في الدَّرْبِ حتَّى طَلَعَ الفَجْر.

وكان الكَأسُ من هُنا والنُّجومُ من هُناك، وكان على حافَةِ السَّطحِ مِذياعٌ صَغيرٌ يُشَغِّلُه أحَدُنا من هاتفه، فصارَ الرِّجالُ الأربَعينِيُّونَ أطفالاً لَهُم خَمْسةَ عَشَرَ عاماً، يَتذاكَرونَ أسماءَ مَن ماتَ ومَن سُجِنَ ومَن سافَرَ ولم يَكتُب.

وشَرِبَ طه في تلك اللَّيلةِ أكثَرَ مِمَّا شَرِبَ في سَنة.

وطَلَبَ الشَّابَ حَسني.

وهذه عَلامةٌ نَعرِفُها فيه كُلُّنا: إذا طَلَبَ حَسني فقد بَلَغَ المَوضِعَ الذي لا يَرجِعُ منه في تلك اللَّيلة. فجاءَ ذلك الصَّوتُ الجَزائريُّ القَديمُ من هاتفٍ صَغيرٍ على حافَةِ سَطحٍ في مولاي رشيد، وجَلَسَ طه مُسنِداً ظَهْرَه إلى الخَزَّانِ وأغمَضَ عَينَيه ورَفَعَ يَدَه وصارَ يُرَدِّدُ اللَّازِمةَ معه، يُرَدِّدُها كُلَّها لا يُخطِئُ فيها حَرْفاً، وهو لا يُحسِنُ من الأغاني شَيئاً إلَّا هذه.

وأنا جالِسٌ قُربَه أنظُرُ إليه وأُفَكِّرُ في شَيءٍ عَجيب: أنَّ هذا الرَّجُلَ الذي لا يَسمَعُ الرَّاب، ولا يُطيقُه، ولا يَفهَمُ لِمَ يُحِبُّه النَّاس، يَحفَظُ أُغنِيةً حَزينةً كامِلةً لِرَجُلٍ مات قَبْلَ أن يَبلُغَ هو العِشرين.

* * *

فإنَّ طه كان مَفتوناً بالميتال.

هكذا، ولا أعرِفُ من أين جاءَه ذلك. صَخَبٌ وجيتاراتٌ وصَوتٌ كأنَّه يَصرُخُ من قاعِ بئر. كان يُشَغِّلُه في الكَراجِ عالِياً وهو يَفُكُّ مُحَرِّكاً، ويَضَعُ سَمَّاعةً في أُذُنٍ واحِدةٍ وهو ماشٍ في الزُّقاق. وقال لي مَرَّةً لَمَّا سألتُه: «لأنَّه لا يَكذِب. الذي يَصرُخُ لا يَكذِب».

وأمَّا أنا وما أصنَعُ، فإنَّه كان يَراه كَلاماً كَثيراً على إيقاع. قال لي مَرَّةً: «كَلامُكم مُرَتَّبٌ أكثَرَ من اللَّازِم. والحَياةُ غَيرُ مُرَتَّبة». ثمَّ قال: «الرَّابُ لا يَدخُلُ رَأسي».

ولم يَقُلْ لي قَطُّ إنَّه سَمِعَ أُغنِيةً من أغانيَّ.

ولا مَرَّةً واحدةً في عشرينَ سَنة. وأنا أعرِفُ أنَّه سَمِعَها، أعرِفُه مَعرِفةً لا تُخطِئ: كان يَعرِفُ ماذا قُلتُ وفي أيِّ حَلْقةٍ قُلتُه، ويَعرِفُ الجُمَلَ التي أخَذتُها من كَلامه. ومع ذلك لم يُقِرَّ بذلك مَرَّةً، ولم يَقُلْ: سَمِعتُك. وإذا جاءَ أحَدٌ في الزُّقاقِ فقال أمامَه إنَّ الحَلْقةَ الجَديدةَ خَرَجَتْ، أشعَلَ سيجارةً ونَظَرَ إلى الطَّريق.

وإنَّما كان يَقولُ لي جُملةً واحِدةً، يَقولُها كُلَّما جَلَسنا: «خُذْ حَياتي واكتُبْ».

وقد فَهِمتُ ذلك مُتَأخِّراً، ولا أُحِبُّ أن أكونَ قد فَهِمتُه: أنَّه ما كان يَرى في الأمرِ فَنّاً نَسمَعُه أنا وهو، وإنَّما كان يَراه إيداعاً. يُسَلِّمُني ما جَرى له ويَمضي. ومَن سَلَّمَكَ أمانةً لا يَجلِسُ معك لِيُثنيَ على خَطِّ يَدِك.

* * *

وفي آخِرِ اللَّيلِ اقتَرَبَ مِنِّي وقد ثَقُلَ لِسانُه، ووَضَعَ يَدَه على كَتِفي كما كان أبوه يَفعَلُ به، وقال:

«وأنا ما زِلتُ أُريدُ المُغامَرة».

فقُلتُ له: اللهُ يَهديك يا طه. أنا لي بِنتٌ الآن.

قُلتُها هكذا، وأنا لا أُريدُ أن أجرَحَه. غَيرَ أنَّها جَرَحَتْه، وقد عَرَفتُ ذلك من ثانِيَةِ صَمتٍ واحِدةٍ جاءَتْ بَعدَها.

ثمَّ زادَ. قامَ وأمسَكَ حافَةَ السَّطحِ وقال إنَّه نازِلٌ السَّاعةَ إلى الكَراجِ، وإنَّه راكِبٌ إلى طَنجةَ الآن، في الرَّابِعةِ والنِّصفِ من الفَجْر، وإنَّه يَعرِفُ الطَّريقَ ويَصِلُ قَبْلَ الظَّهيرة. وصارَ يُعَدِّدُ الطَّريقَ مَحَطَّةً مَحَطَّةً كمن حَفِظَها ألفَ مَرَّة.

فأمسَكتُ ذِراعَه وأجلَستُه، وقُلتُ له:

«مَرَّتْ سِنونٌ يا طه... ونَوالُ ما زالَتْ عَزيزةً في قَلبِك».

فلم يُجِبْ. نَظَرَ إلى الأسلاكِ في السَّماءِ وقال: «واللهُ يَهديني».

* * *

وبَقِيتُ أنا جالِساً إلى جانِبِه إلى أن ابتَدَأَ الضَّوء.

وفي صَدري شَيءٌ لم أقُلْه له في تلك اللَّيلةِ ولا في غَيرِها، وهو الذي أكتُبُه الآنَ لأنّي لم أجِدْ له مَوضِعاً آخَر:

كيف أقولُ لِرَجُلٍ أعرِفُه منذ عِشرينَ سَنةً إنّي كَبِرت؟

كيف أقولُ له إنَّ لي بَيتاً وبنتاً تَنامُ في غُرفةٍ لها بابٌ يُغلَق، وإنَّ لي في الصَّباحِ مَوعِداً، وإنَّ ظَهري يُوجعُني إذا سَهِرت، وإنّي لم أعُدْ أُطيقُ هذه اللَّيالي؟ وهو ما زالَ يُريدُ أن نَسكَرَ معاً في الخَلاءِ وفي البَرْدِ كما كُنّا نَصنَعُ وأعمارُنا سَبعةَ عَشَر، ويَحسِبُ أنَّ ذلك هو الوَفاء؛ ويَعرِضُ عليَّ تلك اللَّيلةَ كما يُعرَضُ الكَرَمُ، ويَفرَحُ إذا قَبِلت.

فإنَّ الصَّديقَ لا يَكبُرُ في عَينِ صاحبِه. يَبقى عِندَه على الصُّورةِ التي تَعارَفا عليها، فإذا تَغيَّرَ صارَ التَّغيُّرُ خِيانةً صَغيرةً لا يُحاسَبُ عليها ولا يُسامَحُ فيها. وقد كَبِرتُ أنا وبَقيَ هو، وما كان ذلك فَضلاً منّي عليه؛ إنَّما كان أنَّ الدُّنيا فَتَحَتْ لي باباً وأغلَقَتْه في وَجْهِه، فصِرتُ أرى في سَهَرِه حُمْقاً وهو يَرى في اعتِذاري جَفاء، وكِلانا مُحِقّ.

* * *

وفي الضَّوءِ الأوَّلِ رَأيتُ وَجهَه.

ورَأيتُ ما كُنتُ أراه منذ شُهورٍ وأُشيحُ عنه بَصَري: على وَجنَتِه اليُمنى، قُربَ الأُذُن، بُقعةٌ بَيضاءُ في حَجْمِ الدِّرهَمِ قد زادَتْ عن المَرَّةِ الماضية، ومَعها أُخرى أصغَرُ عندَ حافَةِ الشَّفَة. وفي شَعْرِه خَطٌّ أبيَضُ لا يُشبِهُ الشَّيبَ، يَنزِلُ من الصُّدْغِ مُستَقيماً كأنَّه مَرسوم.

وهو يَعرِفُ. أعرِفُ أنَّه يَعرِف. ولذلك صارَ يَجلِسُ في الظِّلِّ ويُدَبِّرُ وَجهَه عن الضَّوءِ ويُطيلُ شَعْرَه من ذلك الجانِب، ويَخرُجُ في اللَّيلِ أكثَرَ مِمَّا كان.

وأنا ما سألتُه.

رَجُلٌ عِشرونَ سَنةً مَعه، أعرِفُ ما في جَيبِه وما في سِجلِّه، وأعرِفُ كم صَرَفَ وكم أخَذَ وبِمَن غَدَرَ ومَن غَدَرَ به، ولم أقدِرْ أن أسأَله سُؤالاً واحِداً: ما هذا الذي في وَجهِك يا طه؟ أذَهَبتَ إلى طَبيب؟

وقد أعدَدتُ السُّؤالَ في رَأسي عَشَراتِ المَرَّات، وفي كلِّ مَرَّةٍ كُنتُ أُقَدِّمُه فأرُدُّه. فإنَّ الرَّجُلَ الذي يُخافُ منه لا يُسألُ عن جَسَدِه؛ والسُّؤالُ عن الجَسَدِ يَفتَحُ باباً على الضَّعْف، ومَن فَتَحَ عليه ذلك البابَ أمامَ عَشَرةٍ على سَطحٍ فقد أهانَه إهانةً لا تُغتَفَر.

هكذا قُلتُ لنَفسي. والحَقُّ أقسى: أنِّي خِفتُ أن يُجيبَني. خِفتُ أن يَقولَ: لا، ما ذَهَبتُ، ولا أملِكُ. فأجِدَ نَفسي في تلك الثَّانيةِ مُطالَباً بشَيء.

فسَكَتُّ. وأشعَلتُ سيجارةً ونَظَرتُ إلى الطَّريق، كما كان يَفعَلُ هو إذا ذُكِرَتْ أغانيَّ أمامَه.

وهكذا جَلَسنا على ذلك السَّطحِ حتَّى طَلَعَتِ الشَّمسُ، صَديقان منذ عِشرينَ سَنةً، كُلُّ واحِدٍ منَّا يُحسِنُ في الدُّنيا كُلِّها شَيئاً واحِداً: أن لا يَسألَ الآخَرَ عَمَّا يُهِمّ.

وبَعدَ ثَلاثةِ أشهُرٍ من تلك اللَّيلةِ طَلَبَ مِنِّي وَرَقةً وقَلَماً في فُندقِ إكسلسيور.

وبَعدَ ثَلاثةِ أشهُرٍ من تلك اللَّيلةِ طَلَبَ مِنِّي وَرَقةً وقَلَماً في فُندقِ إكسلسيور.

الفَصْلُ السَّابِعُ

رَنَّةٌ وَاحِدَةٌ فِي الثَّالِثَةِ صَبَاحاً

خَرَجتُ من إكسلسيورَ في الخامسة وعشرينَ دَقيقة، والمَطَرُ قد خَفَّ وصارَ رَشّاً دَقيقاً يُبَلِّلُ ولا يُسمَع. وكانتْ ساحةُ الأُمَمِ المُتَّحدة فارغةً إلَّا من عاملِ نظافةٍ يَدفَعُ عَرَبةً، ومن حَمامٍ نائمٍ على حافَةِ النَّافورة، ومن الطَّرامْوايِ الأوَّلِ يَخرُجُ من مُستَودَعِه بصَوتٍ يُشبِهُ تَنَفُّسَ شَيءٍ كَبيرٍ يَستَيقِظُ على غَيرِ رَغبةٍ منه.

ولم أذهَبْ إلى بَيتي.

رَكِبتُ سَيَّارتي ومَشَيتُ في الطَّريقِ القَديمةِ نَفسِها: المَعاريفُ ثمَّ المَسيرةُ ثمَّ الطَّريقُ المُؤَدِّيةُ إلى مولاي رشيد. وكُلَّما ابتَعَدتُ عن المَركَزِ انخَفَضَت البِنايات، وتَكاثَرَت الأسلاكُ في السَّماء، وصارَ لَونُ الجُدرانِ ذلك اللَّونَ الذي لا اسمَ له في أيِّ لُغة؛ لَونٌ بينَ الرَّمادِ والطِّينِ يَصنَعُه المَطَرُ والدُّخانُ وأربَعونَ سَنَةً من الوُعود.

* * *

وَصَلتُ إلى الكَراجِ في السَّادسةِ وعَشْرِ دَقائِق. وكان البابُ المَعدنيُّ مُسدَلاً إلى ثُلثِه، وفي الدَّاخِلِ ضَوءُ مِصباحٍ نيونٍ واحدٍ يَرتَجِف.

دَخَلتُ. وكانتِ الدَّرَّاجةُ هناك.

وَضَعتُ كَفِّي على المُحَرِّكِ فوَجَدتُه بارِداً. بارِداً بَرْداً تامّاً لا يَكونُ إلَّا بَعدَ ساعاتٍ طَويلةٍ من الوُقوف. وقد كُنتُ قَبْلَ خَمسِ ساعاتٍ أُقسِمُ أنِّي سَمِعتُ هذه الدَّرَّاجةَ بالذَّاتِ في شارِعِ إكسلسيور.

ها هنا، أيُّها القارئ، يَجبُ أن أُقَرِّرَ شَيئاً أكرَهُه: إنَّ الذَّاكرةَ شَاهدٌ يَكذبُ بحُسْنِ نيَّة. تُريدُ أن تَسمَعَ الصَّوتَ فتَسمَعُه، وتُريدُ أن يَكونَ قد جاءَ وتَأخَّرَ ومَرَّ من تَحتِ النَّافذة وانصرَفَ، لأنَّ ذلك أرحَمُ من أن يَكونَ لم يَخرُجْ من بَيتِه أصلاً. ولستُ أدري إلى اليَومِ أسَمِعتُها أم صَنَعتُها.

* * *

وعِندَ الزَّاوِيةِ وَجَدتُ وَلَداً.

عُمرُه سَبعةَ عَشَرَ أو ثَمانيَةَ عَشَر، عليه قُبَّعةٌ سَوداءُ وسِرْوالٌ واسِعٌ وسلسلةٌ تُشبهُ سلسلةً أعرِفُها، ويُمسِكُ هاتِفَه بيَدٍ ويُدَخِّنُ بالأُخرى. وكان يُهَزِّزُ رُكبتَه ذلك التَّهزيزَ الذي يُعرَفُ به المُنتَظِر.

سَلَّمتُ عليه فرَدَّ وهو يُقَدِّرُ ثَمَنَ سَيَّارتي. ثمَّ سألتُه عن طه.

فرَفَعَ رأسَه ونَظَرَ إليَّ نَظرةً فيها ذلك الشَّيءُ القَديمُ الذي أعرِفُه: نِصفُها حِذْرٌ ونِصفُها فَخْرٌ بأنَّه يُسألُ. وقال ثَلاثَ كَلِمات: «طه؟ مَشَى».

قُلتُ: إلى أين؟

فرَفَعَ كَتِفَيه رَفْعاً واحِداً، تلك الحَرَكةَ التي تَصلُحُ جَواباً لكُلِّ سُؤالٍ في هذا الزُّقاق. وعادَ إلى هاتِفِه.

وفي ذلك الصَّباحِ، وفي الأسابيعِ التي تَلَتْه، جَمَعتُ ثَلاثَ رِواياتٍ لا تَتَّفِقُ على شَيء:

قال قائلٌ إنَّه رَكِبَ البَحرَ مَرَّةً ثانية، في قاربٍ انطَلَقَ من ساحِلٍ شَرقِيٍّ لَيلةَ الخميس، وإنَّه الآنَ في جَزيرةٍ وَسْطَ المُتَوَسِّطِ يَنتَظِرُ وَرَقةً.

وقال قائلٌ إنَّه أُوقِفَ في اللَّيلة نَفسِها وإنَّه في الدَّاخِل، وإنَّ أهلَ الزُّقاقِ يَكتُمونَ الخَبَرَ كِتماناً، فإنَّ مِنَ العارِ عِندَهم أن يُقالَ إنَّ الكُوبرا أُخِذَ مَرَّتَين.

وقال قائلٌ إنَّه في مِكناس، في حَيٍّ قَديمٍ هناك، في غُرفةٍ لا يَخرُجُ منها إلَّا للصَّلاةِ وأنَّه قد تابَ.

ثَلاثُ رِواياتٍ: بَحرٌ وسِجنٌ وتَوبة. وما في الزُّقاقِ من يُرَجِّح.

وأنا أعرِفُ، وأنتَ تَعرِفُ، أنَّ الرِّواياتَ الثَّلاثَ شَيءٌ واحِد. فالبَحرُ والسِّجنُ والتَّوبةُ ثَلاثةُ أبوابٍ يَخرُجُ منها الرَّجُلُ من حِكايتِه، وليس في الدَّرْبِ بابٌ رابِع.

* * *

أمَّا الرَّنَّةُ.

وَعَدتُك أن أعودَ إليها، وأنا رَجُلٌ يَفي بوَعدِه في الوَرَقِ على الأقَلّ.

الرَّقَمُ الذي أضاءَ في الثَّالثة وأربَعِ دَقائِقَ كان رَقَماً أجنَبِيّاً. وقد عَرَفتُ مَفاتِحَ البِلادِ من كَثرةِ ما سَفَرتُ، فعَرَفتُ من أيِّ ضِفَّةٍ جاء.

ولم أُجِبْ.

وأنا أعرِفُ السَّبَب، وقد كَذَبتُ على نَفسي أربَعةَ أشهُرٍ ثمَّ تَعِبتُ من الكَذِب. لم يَكُنِ السَّبَبُ النَّومَ، فأنا كُنتُ مُستَيقِظاً وعَيني في الشَّاشة. ولم يَكُنِ السَّبَبُ الخَوفَ من الشُّرطةِ ولا من الوَرْطة، فقد أخرَجتُه من وَرَطاتٍ أثقَلَ.

إنَّما كان السَّبَبُ أنِّي عَرَفتُ، في تلك الثَّانيةِ الواحِدة، أنَّه إن تَكَلَّمَ فسَيَطلُب. وأنَّ ما سَيَطلُبُه لن يَكونَ مالاً، فإنَّ المالَ أُعطيه ولا أشعُر. سَيَطلُبُ أن أذهَبَ إليه. سَيَطلُبُ أن أحمِلَ معه نِصفَ ما يَحمِل، وأن أُدخِلَه بَيتي، وأن أكونَ في حِكايتِه فاعِلاً لا راوِياً.

وأنا خِفتُ. هذا هو الكَلامُ الذي كُنتُ أدورُ حَولَه أربَعةَ أشهُرٍ ولا أقولُه: خِفتُ أن يَطلُبَ مِنِّي ما أعرِفُ أنِّي سأرفُضُه، فاختَرتُ أن لا أُسأَل. فإنَّ الرَّجُلَ يَحتَمِلُ أن يَكونَ مُقَصِّراً في سِرِّه، ولا يَحتَمِلُ أن يَسمَعَ بأُذُنِه طَلَباً يَرُدُّه ثمَّ يَعيشَ بَعدَه.

وأنا كُنتُ قد قَرَّرتُ، في بَهْوِ ذلك الفُندقِ وعلى تلك الوَرَقةِ بالذَّات، أن أحكِيَه بصيغةِ الماضي.

فهل تَفهَمُ الآن؟ كُنتُ أنتَظِرُ صاحِبي بجسمي وأنتَظِرُ غيابَه بشَيءٍ آخَرَ فيَّ لم أكُنْ أُسَمِّيه؛ لأنَّ الغائبَ يُكتَبُ والحاضِرَ يُعاش. والكِتابةُ أرخَصُ. والكِتابةُ أنظَفُ. والكِتابةُ لا تَطرُقُ بابَك في الفَجْرِ ثَلاثَ طَرَقات.

وقد قالوا إنَّ الكُوبرا سُمٌّ والمُورفينَ دَواء. والحَقُّ أنَّ الكُوبرا لا تَعَضُّ إلَّا من دَنا منها، وأمَّا المُورفينُ فإنَّه يَدخُلُ الوَريدَ بإذنِ صاحِبِه، فيُنَوِّمُه عن أن يَصرُخَ حينَ يَجِبُ الصُّراخ. وأنا كُنتُ أكثَرَنا سُمِّيَّة، وأقَلَّنا اعترافاً.

* * *

بَقِيَ شَيءٌ واحِد.

في الكُرَّاسِ الذي كَتَبَه في عُكَّاشةَ، وهو عِندي إلى اليَوم، في الصَّفحةِ الأخيرة، سَطرانِ بخَطٍّ مائلٍ مُتعَب:

«أنا ما أدخَلتُ الحَرامَ في فَمِ أحَدٍ بيَدي؛ كانوا يَجيئونَ إليَّ بأرجُلِهم. وأعرِفُ أنَّ هذا لا يَكفي».

وقد وَقَفتُ أمامَ هذَينِ السَّطرَينِ سنين، أُقَلِّبُهما ولا أُحسِنُ شَرحَهما. ثُمَّ فَهِمتُهما في ذلك الصَّباحِ وأنا أضَعُ كَفِّي على مُحَرِّكٍ بارِد.

فإنَّ العُذْرَ الذي يُقيمُه الواحدُ منَّا لنَفسه عُذْرٌ حسابِيٌّ دائماً، يُقيمُه على ما لم يَفعَلْ لا على ما فَعَل. وقد كان لطه في ذلك حسابٌ كامِلٌ حَفِظَه كما يُحفَظُ الوِرْد: أنَّه ما أكرَهَ أحَداً على الشِّراء، وأنَّ الذي جاءَه جاءَ بقَدَمَيه ومَعه ثَمَنُه، وأنَّه كان يَرُدُّ الصَّغيرَ ولا يَبيعُ لِمَن لم يُجاوِزِ الثَّامِنةَ عَشْرة، وأنَّه لو لم يَبِعْ لَباعَ غَيرُه في الزُّقاقِ نَفسِه ولَما نَقَصَ من الدُّنيا غُرامٌ واحِد.

وهذا كلُّه صَحيحٌ، ولا يُنجيه. فإنَّ البائعَ يَرى الواحدَ يَجيءُ إليه بقَدَمَيه، ولا يَرى الأُمَّ التي تُفَتِّشُ عن ابنها في الزَّوايا، ولا الأُخرى التي تَبيعُ خاتمَها في آخرِ الشَّهر، ولا الوَلَدَ الذي بَدأَ بمَحَبَّةٍ على سَبيلِ التَّجربةِ وانتَهى إلى ما انتَهى إليه. ومَن أحسَنَ أن يُحصِيَ ما لم يَفعَلْ، أعماه ذلك الإحصاءُ عن أثَرِ ما فَعَل.

ثمَّ إنَّ هذا الحسابَ كُلَّه يَسكُتُ عن السُّؤالِ الوَحيدِ الذي يُسألُ عنه الإنسانُ آخرَ الأمر: ماذا فَعَلتَ بما اؤتُمنتَ عليه؟ فقد اؤتُمنَ طه على أُمٍّ في أربَعةِ أمتارٍ مُربَّعة، فأطعَمَها مِمَّا أمرَضَ بُيوتاً أُخرى وسَمَّى ذلك براً. واؤتُمنتُ أنا على طه، فحكَيتُه ولم أَمُدَّ له يَداً وسَمَّيتُ ذلك فَنّاً. وكِلانا قَدَّمَ البَراءةَ القانونيَّةَ بَدَلاً من الأمانة، وحَسِبَ أنَّ الحِسابَ سَيَقبَل.

ولا يَقبَل.

هذه هي الحكاية، وقد حَكَيتُها بلا تَجميلٍ ولا إخفاء، كما وَعَدتُه على ذلك الجُدارِ قَبْلَ عشرينَ سَنةً حينَ كُنتُ أكتُبُ بالفَحْمِ وكان يَقِفُ وَرائي يَقرأ. ولم أجعَلْه بَطَلاً، وهذا شَرطُه، وقد وَفَّيتُ. غَيرَ أنِّي لم أجعَلْ نَفسي بَريئاً أيضاً، وهذا شَرطٌ لم يَطلُبْه مِنِّي أحَد.

وأنا جالسٌ الآنَ إلى هذه الطَّاولةِ أكتُبُ السَّطْرَ الأخير، والنَّافذةُ أمامي تُطِلُّ على سَطحٍ من أسطُحِ هذه المدينة، والأسلاكُ في السَّماء كما كانتْ، وفي الزُّقاقِ تَحتَ النَّافذةِ ثَلاثةُ شَبابٍ واقفينَ عندَ الزَّاويةِ لا يَفعَلونَ شَيئاً إلَّا أنَّهم يَرَوْنَ كُلَّ شَيء. وفي أحَدِهم قُبَّعةٌ سَوداء. وفي أحَدِهم كَثيرٌ من طه.

والسَّاعةُ الآنَ الثَّالثةُ وأربَعُ دَقائق.

والهاتفُ على حافَةِ الطَّاولةِ يَرتَجِفُ، وقد أضاءَتْ شاشَتُه بالرَّقَمِ نَفسِه.

وأنا أنظُرُ إليه.

وأمُدُّ يَدي.

عَزيزي القَارئ : لم تَنتَهِ القصَّةُ بَعد.

وأنا أعرِفُ أنَّك أغلَقتَ الصَّفحةَ الأخيرةَ ومَعك أسئلةٌ تُريدُ لها جَواباً: فأينَ طه الآن؟ وأيُّ الرِّوايات الثَّلاث هي الصَّحيحة: البَحرُ أم السِّجنُ أم التَّوبة؟ وهل مَدَدتُ يَدي إلى الهاتف فأجَبتُ، أم مَدَدتُها ثمَّ سَحَبتُها كما سَحَبتُها في المَرَّة الأولى؟ وماذا صارَ إلى نَوال، أسَعِدَتْ في بَيتِها أم بَقِيَتْ تَنظُرُ إلى البَحرِ في المَرشان وتَتذَكَّرُ فَتًى قال لها إنَّ اسمَه طه فَقَط؟ وأُختُه في ألمانيا، أعَلِمَتْ بشَيءٍ من هذا كُلِّه؟ وعَزُّوز، أما زالَ في الصَّفِّ الأوَّل؟ ومَن الوَلَدُ ذو القُبَّعة السَّوداء الواقفُ عِندَ الزَّاوية تَحتَ نافذتي؟

وأنا لا أملكُ أن أُجيبَك. ولا أقولُ هذا تَدَلُّلاً على قارئٍ أتعَبتُه أربَعينَ صَفحة، وإنَّما أقولُه لأنَّ الأمرَ على ثَلاثة أقسام: منها ما لا أعرِفُه، وهو أكثَرُه. ومنها ما أعرِفُه ولا أملكُ أن أقولَه، فإنَّ في الحِكايةِ أحياءً وبُيوتاً قائمةً وأبناءً يَذهَبونَ إلى المَدارسِ في الصَّباح. ومنها ما لم يَحدُثْ بَعد.

فإنَّ الدَّربَ، وأنا أكتُبُ لك هذا السَّطر، لم يَتَوَقَّفْ عن العَمَل. الزُّقاقُ مَفتوحٌ، والأسلاكُ في مَوضعها، والحَجَرُ الأبيَضُ في الصَّفِّ الحادي عَشَرَ قد نَبَتَ على طَرَفِه عُشْبٌ أصفَرُ من جَديد، والحافِلةُ رَقَم أربَعة وخَمسينَ تَمُرُّ في السَّاعةِ نَفسِها كلَّ صَباحٍ وفيها من أبناءِ الفيلَّات من لا يَعرِفُ أنَّه سيَركَبُها في الخَريفِ القادم.

ولو سَألتَني: ولِمَ لم تُغلِقِ الحكاية؟ لَقُلتُ لك: لأنَّ الحكاياتَ المُغلَقةَ تُنسى. تَقرَأُ آخرَ سَطرٍ فتَستَريح، وتَضَعُ الكتابَ على الرَّفِّ وتَمضي إلى عَشائك. وأمَّا التي تَبقى مَفتوحةً فإنَّها تُطارِدُ صاحِبَها، تَجيئُه على غَفلةٍ في زِحامٍ أو في إشارةِ مُرورٍ حَمراءَ أو حينَ يَرى وَلَداً واقِفاً عِندَ زاويةٍ لا يَفعَلُ شَيئاً. وأنا أُريدُ أن تُطارِدَك قَليلاً.

ثمَّ إنَّ لي عِندَك طَلَباً واحداً، وهو آخرُ ما أقول. إن مَرَرتَ يَوماً بزُقاقٍ كهذا الزُّقاق، ورَأيتَ فيه وَلَداً نَزَلَ من عُلُوٍّ ولم يَتعَلَّمْ كيف يَتَّقي السُّقوطَ بذِراعِه، فلا تَكتُبْ عنه. امدُدْ له يَدَك.

فإنِّي كَتَبتُ، وقد رَأيتَ ما بَلَغتُ

الحسابات الرسمية للكاتب







رواية

المورفين

ثلاثية طه الكبرى

الجزء الأول

أنا المُورفين.

وهذه قِصَّةُ طه، أحكيها لك بحَقِّ ما كان بَيني وبَينَه: عِشرونَ سَنةً في زُقاقٍ واحِدٍ، وسَطحٌ واحِدٌ جَلَسنا عليه حتَّى طَلَعَ الفَجْرُ مَرَّاتٍ لا تُعَدّ، وشُبَّاكُ زِيارةٍ في عُكَّاشةَ وَقَفتُ خَلفَه ولم أتَخلَّف. ولم يُوَكِّلْني أحَدٌ بهذه الحِكاية، غَيرَ أنَّ الذي يَشهَدُ عِشرينَ سَنةً يَصيرُ عليه أن يَقول.

ولا بأسَ أن أضَعَك في السِّياقِ من أوَّلِه: أنا رَجُلٌ يُغَنِّي. وقد سَبَقَ أن غَنَّيتُ هذه القِصَّةَ في ثَلاثِ أغانٍ على ثَلاثِ حَلَقات، فمَن سَمِعَها عَرَفَ الخُطوطَ الكِبار: فَتًى وُلِدَ في النَّعيمِ ونَشَأَ في فيلَّا لا يَعرِفُ للمُستَحيلِ مَعنًى، ثُمَّ هَبَطَ في صَباحٍ واحِدٍ إلى فَقْرٍ مُدقِعٍ وعَذابٍ طَويل: أربَعةُ أمتارٍ مُرَبَّعة، وأُمٌّ على آلةِ التَّصفِية، وسِجْنٌ، وبَحْرٌ، وغُربةٌ، ثُمَّ عَودةٌ أعتى من الذَّهاب.

غَيرَ أنَّ الأُغنِيةَ ضَيِّقة. ثَلاثُ دَقائِقَ لا تَحمِلُ عِشرينَ سَنة، والقافِيةُ تَأخُذُ من الحِكايةِ أكثَرَ مِمَّا تُعطيها؛ فيَخرُجُ الكَلامُ مَشهَداً مُتَقَطِّعاً يُصَفِّقُ له النَّاسُ ولا يَفهَمونَه. فما قُلتُه هناك مُجمَلاً أبسُطُه لك هنا. وما قُلتُه هناك بالرَّمزِ — خَوفاً أو حَياءً أو لأنَّ الوَزنَ لم يَحمِلْه — أُسَمِّيه هنا باسمِه.

وأُقَدِّمُ إليك شَرطَينِ قبلَ أن تَدخُل:

أمَّا الأوَّلُ فأنَّكَ لن تَجِدَ في هذه الصَّفحاتِ بَطَلاً. هو أوصاني بذلك وأنا بَينَ يَدَيه شُبَّاكُ زِيارة، قال: «سَجِّلْ، وسَمِّها بما شِئتَ، بشَرطٍ واحِد: لا تَجعَلْني بَطَلاً». وقد وَفَّيتُ. ولم أجعَلْ نَفسي بَريئاً أيضاً، وهذا شَرطٌ لم يَطلُبْه مِنِّي أحَد.

وأمَّا الثَّاني فأن لا تَقرَأَها لِتَحكُم. فالحُكْمُ أرخَصُ ما في هذا البابِ وأسرَعُه؛ تَقرَأُ ثَلاثَ صَفحاتٍ ثُمَّ تَضَعُ الرَّجُلَ في خانةٍ وتَنصَرِف. وأنا لا أطلُبُ منك أن تُبَرِّئَه، فما أُبَرِّئُه أنا، وإنَّما أطلُبُ أن تَقرَأَ إلى آخِرِها ثُمَّ تَقولَ ما شِئت.

